# الحدود الإسلامية البيزنطية
## بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

### الكتاب الثالث
### في الاتصال الحضاري

تأليف

فتحي عثمان

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

من النواحى المذكورة رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف فنادق » • وكان أهل الثغور يكرمون فى بغداد، ويحكى عن أبى على القالى اللغوى المشهور المتوفى سنة ٣٥٦ هـ سنة ٩٦٧ م انه سمى القالى لما انحدر الى بغداد ، فى رفقة أهل قالى قلا ، وكانوا يكرمون لمكانهم فى الثغر ، فنسب اليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك • بعض المكدين يتظاهرون بجمع المال للجهاد أو فك الأسرى ، وكثير من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دوابا كالغزاة ويطوفون البلاد • وفى مصر كان القاضى يبعث ما يجتمع من أموال السبيل لتفرق على ثغورها المسماة بالمواحيز من العريش الى لوبية لتعطى للمتطوعة والفقراء من أهل الديوان • وكانت بلاد ماوراء النهر تلى طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد ، لما اشتهر به أهلها من الشوكة والبأس والتضحية • وكان فى بيكند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من الف رباط للغزاة المجاهدين ، وكان باسفيجاب الف وسبعمائة رباط • وكانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم له سببا فى سيرهم الى الجبهة الغربية لقتال الروم عندما توالت انتصاراتهم على المسلمين فى معارك الحدود ، حتى خرج عشرون الفا من خراسان سنة ٣٥٥ هـ يظهرون انهم غزاة حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، وقد اصطدموا بابن العميد وزير ركن الدولة وطالبوه بالمال والرجال ، ثم كروا راجعين فاشلين الى ديارهم آخر الأمر • (١٣٩)

## السياسة الدينية للمسلمين والبيزنطيين :

جرت العادة أيام الخلفاء المسلمين على تحديد القيود التى يلتزمها غير المسلمين فى حياتهم العامة والخاصة ، وتقرير الحقوق التى يمتعون بها فى دار الاسلام • وهناك عهد يعرف بعهد عمر بن الخطاب له صور متباينة ، وهو محل شك فى صياغته ومعانيه ، والعهود الاخرى التى أعطيت لمدن الشام كانت بالغة البساطة • وقد جاء فى بعض العهود شرط على الذميين : **الا يدلوا على عورة المسلمين ، والا يلبسوا السلاح فى عيدهم ، والا يظهروا السلاح فى بيوتهم** • ويقول ترتون « قد يدعى البعض ان موقع بلاد الشام على حدود الدولة الاسلامية جعلها أكثر من غيرها تعرضا للحروب مع البيزنطيين ، وان هذا الوضع أدى الى فرض

(١٣٩) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٦٤ : ٧ ، الاصطخرى المسالك والممالك ص ٤٧ ، ابن حوقل •

قيود معينة على سكانها ، ويكفى للرد على ذلك ان نقول ان هناك قسما واحد من الولاية كان وحده دون غيره عرضة لخطر الغزو الاجنبى ، ثم هناك الجزيرة - أعنى شمالى العراق التى كانت فى نفس الوضع ان لم تكن أكثر منه عرضة للاحتكاك الحربى بالروم ، لكننا لا نسمع شيئا عن تلك القيود التى فرضت على أهل الشام وان تكن قد اتخذت فيما بعد فى ربوع العالم الاسلامى ، لكن ليس ثمة بينة بين ايدينا تدلنا على انها طبقت فى بلاد الشام زمن عمر .. بذلك . ننتهى الى خاتمة لانستطيع منها فكاكا هى اننا لا نعرف كيف كان عهد عمر ، ولا تعرف أية مجموعة من معاهدات الصلح يمكن أن توسم باسمه ، والظاهر انه كان من التقاليد المرعية فى مدارس الفقه وضع نماذج للعهود والمعاهدات » (١٤٠) .

وقد روى ابن العديم ماذكر أنه شرط عمر على أهل قنسرين ، وكان مما جاء فيه « ... على الغنى ثمانية وأربعون وعلى الوسط أربعة وعشرون وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها بصغار ، وعلى مشاطرة المنازل بينهم وبين المسلمين ، والا يحدثوا كنيسه الا ما كان فى أيديهم ولا يضربوا بالناقوس الا فى جوف البيعة ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ولا يرفعوا صليبا الا فى كنيسة . وأن يؤخذ منهم القبلى من الكنائس للمساجد ، وأن يقروا ضيف المسلمين ثلاثا ، وعلى أن لا تكون الخنازير بين ظهرانى المسلمين ، وعلى أن يناصحوهم فلا يغشوهم ولا يمالئوا عليهم عدوا وأن يحملوا راحل المسلمين من رستاق وأن لا يلبسوا السلاح ولا يحملوه الى العدو ولا يدلوا على عورات المسلمين . فمن وفى وفى المسلمون له ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم . ومن انتهك شيئا من ذلك حل دمه وماله وسبى أهله وبرئت الذمة منه وكتب بذلك كتابا ... فدخل فى هذا الصلح أهل الجزيرة . وقبل ذلك ما كان أبو عبيدة فارقهم على أربعة دراهم وعباءة على كل جلجلة على أن يكون عمر الفارض عليهم اذا قدم بلادهم » . وقد اكتفى البلاذرى بالاشارة الى أن صلح قنسرين كان كصلح حمص ، وبالنسبة لصلح حمص أجمل القول أنه كان على ١٧٠٫٠٠٠ دينار .

ومهما يكن من أمر فان الذميين ملزمون على كل حال بمراعاة ظروف الدولة الاسلامية السياسية والحربية ، وعليهم الا يمالئوا عدوها ، وقد جعل ابن القاسم مما ينقض عهد الذمتين «أن يجمعوا على قتال المسلمين أو يؤوى - أحدهم - للمشركين جاسوسا ، أو يعين على المسلمين بدلالة

---

(١٤٠) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام - ترجمة حسن حبشى ص ٩ : ١٥ ، ١٨ ،

فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين » (١٤١) ٠

وكان عدد من القبائل العربية النازلة على تخوم سوريا والعراق كبنى غسان وبكر وتغلب وتنوخ قد اعتنق النصرانيـة ، وقد فرضت الجزية عليهم واعتبروا من أهل الذمة وجردوا من السلاح مقابل حماية المسلمين لهم ٠ ويقرر الدكتور حتى ان وضع أهل الذمة « قد أتاح لهم أن يتمتعوا بقسط وافر من الحرية وذلك فى مقابل اداء ضريبة الخراج والجزية ، على انهم ـ اذ لم يكونوا من صميم المجتمع الديني ذى السيادة فى البلاد كانوا فى منزلة اجتماعية وسياسية ثانوية ٠ وظل مرجعهم فى الأمور المدنية والقضائية الى رؤسائهم الروحيين الا فى القضايا التى مست المسلمين » ٠ ويرى الدكتور حتى ان المسلمين كانوا أقل تساهلا فى شأن النصارى المنحدرين من أصل عربى ، فقد قتل كبيرا بنى تغلب لامتناعهما عن اعتناق الاسلام فى عهـدى عبد الملك فالوليـد ، ودعى النازلون فى حوار قنسرين من التنوخيين الى الاسـلام على أثر فتح الشـام ، وأجبر المهدى العباسى المقيمين منهم فى جوار حلب على اعتناق الاسـلام وعمد الى هدم كنائسهم (١٤٢) ٠ على أن ما ذهب اليه الدكتور حتى فى شأن سياسة المسلمين مع العرب النصارى ليس على اطلاقه ، فقـد أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى بنى تغلب بالجزيرة فهربوا « فتفرقوا فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم » فقيل لعمـر : انهم قوم من العرب ذائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغنين عدوك عليهم بهم ، فأرسل عمر فى طلبهم ، فردهم وأضعف عليهم الصدقة ٠

وقد روى البلاذرى ما ينبىء عن اخلاص أهل الشـام غير المسلمين للحكم الاسلامى « لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيـه من الظلم والغشم ، ولندفعن ضد هرقل عن المدينـة مع عاملكم ٠ ونهض اليهـود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا أن نغلب ونجهد فاغلقوا

---

(١٤١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٨ ، ١٥٢ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٣ ـ ٤ ، ترتون اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة حبشي ص ١٨ ٠

(١٤٢) حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٨ ـ ٩ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة حبشى ص ٩٤ ـ ٥ ٠

الابواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد . فلما هزم الله الكفرة واظهر المسلمين فتحوا مدنهم ، وأخرجوا المقلسين فلعبوا ، وأدوا الخراج، وسا أبو عبيدة الى جند قنسرين وانطاكية ففتحها » (١٤٣) . على أن الطبرى يروى عن أهل الجزيرة موقفا آخر ١٧ هـ سنة ٦٣٨ م ، فقد تكاتب الروم مع أهل الجزيرة يريدون طعن أبى عبيدة والمسلمين بحمص من الخلف « فضم أبو عبيدة اليه مسالحة وعسكروا بفناء مدينة حمص ، واقبل خالد من قنسرين حتى انضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح ... فلما وقع الخبر لعمر كتب الى سعد بن مالك : ان اندب الناس مع القعقاع ابن عمرو وسرحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى الى حمص .. وكتب اليه أيضا : ان سرح سهيل بن عدى الى الجزيرة فى الجند وليأت الرقة فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وان أهل قرقيسياء لهم سلف ، وسرح عبد الله بن عتبان الى نصيبين فان أهل قرقيسياء لهم سلف ، ثم لينفضا حران والرهاء . وسرح الوليد ابن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ .. ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من الجزيرة منهم بأن الجنود قد ضربت على الكوفة ولم يدروا الجزيرة يريدن أم حمص تفرقوا الى بلدانهم واخوانهم وخلوا الروم ... وقد ارفض أهل الجزيرة عن حمص الى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة ، وذلك انهم قالوا فيما بينهم : أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على هؤلاء وهؤلاء » (١٤٤) .

وقد حاول المسلمون استمالة **السامرة** ، **والجراجمة** ، وقد صالح أبو عبيدة الاخيرين « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام وألا يؤخذ بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم حربا فى مغازيهم » .

واستمرت هذه الميزات للجراجمة فى العهود الاسلامية المتتابعة رغم اتصالاتهم بالروم « فوجه الوليد بن عبد الملك اليهم مسلمة بن عبد الملك فاناخ عليهم فى خلق من من الخلق فافتتحها ، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم القوت

---

(١٤٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٨٩ ، الطبرى حـ ٤ ص ١٩٨ .
(١٤٤) الطبرى حـ ٤ ص ١٩٥ : ٧ .

من القمح والزيت ، وعلى ألا يكرهوا ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين » .

وتكرر اجلاؤهم فى عهد صالح بن على العباسي وكتب اليه الاوزاعي رسالة طويلة يعاتبه على موقفه « فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى ( ألا تزر وازرة وزر أخرى ) وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به . وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله فانه قال ( من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه ) ... » أما بالنسبة لليهود فنجد خبرا يقول ان معاوية أسكن أطرابلس جماعة كبيرة منهم (١٤٥) . وقد أشار ابن خرداذبة الى التجار اليهود الرذانية « الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ويسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ويتنقلون بين دول أوربا وديار الاسلام . فيخرجون بانطاكية ، ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ... » ومنها يتجهون شرقا حتى الصين (١٤٦) .

وكان المندعيون أو الصابئة الخلص طائفة يهودية تأثرت بالمسيحية يسكنون فى السهول السفلى لبابل ومقرهم الاصلى فلسطين ويمارسون التعميد ، أما **صابئة حران** فكانوا من عبدة النجوم وقد ازدهر شأنهم فى أواخر أيام الامويين ، وانتحلوا لأنفسهم اسم الصابئة لما سألهم المأمون عن ديانتهم وخيرهم بين الاسلام والقتل ، والتصق بهم هذا الاسم منذ ذلك الوقت . وفى سنة ٣٢٠ هـ استفتى الخليفة القاهر فى شأنهم فأفتى بقتلهم ، فجمعوا مالا كثيرا فكف عنهم . وقد صدر حوالى منتصف القرن ٤ هـ منشور كتب للصابئة بحران والرقة وديار مصر أمر فيه الخليفة بصيانتهم وحراستهم ، ولكنهم أخذوا يقلون شيئا فشيئا ، ومع ذلك وجدوا حين هجوم المغول الذين حطموا آخر معابدهم (١٤٧) .

---

(١٤٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٥ : ٩ ، ١٣٣ .
(١٤٦) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ٤ .
(١٤٧) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ـ ترجمة حبشى ص ٤٧ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ ٢ ص ٤٥٠ ـ ١ متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريده حـ ١ ص ٥٢ .

واستفاد المسلمون من الطائفة البولسية **(البيالقة) الذين** اضطهدهم البيزنطيون ففروا الى ما وراء الحدود ، وتلقاهم العرب مرحبين فأنزلوهم فى مواضع أمينة وأشركوهم فى جيوشهم فى قتال الروم وبنى البولسيون لانفسهم مدنا جديدة فى ارجايوس وامارا ثم تفريك حيث عاش الزعيم البولسى قرباص (قربياس) الذى شارك على بن يحيى فى حملا .. عدة لقتال الروم ، وظل البيالقة يعينون المسلمين « وهم من الروم الا انهم يخالفونهم فى كثير من اديانهم .. الى ان رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع باساءة أهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على أمرهم فتفرقوا فى البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الأرمن » (١٤٨) .

***

وكان المسلمون فى الشام يعيشون مع غير المسلمين ، بل كانوا احيانا يقاسمونهم بيتا لله نصفه مسجد ونصفه كنيسة ، وكانت الشام فى نظر المسلمين ارضا مقدسة ، وكتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية على اثر الفتح العربى قائلا « ان العرب الذين ولاهم الله السلطة على العالم فى هذا العهد هم ـ كما تعلمون ـ يقيمون فيما بيننا ، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء ، بل هم على عكس ذلك : يمتدحون ديننا ويجلون الكهنة والقديسيين ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك » (١٤٩) . وقد نال معاوية محبة النصارى ، وفى سنة ٦٥٩ م اتى اساقفة اليعاقبة تواذورس ( بطريرك اليعاقبة من سنة ٦٤٩ : سنة ٦٦٧م ) وسيكوت اسقف قنسرين الى دمشق وجادلوا الموارنة بحضرة معاوية ، وانهزم اليعاقبة ففرض معاوية عليهم عشرين ألف دينار كان بطريركهم يجمعها من الاديار والرهبات والعامة « كيلا ينكف الخليفة عن حمايتهم ولا يضطهدهم الموارنة » (١٥٠) . ويتكلم تيوفانيس عن رعاية معاوية للنصارى ، وفى سيرة معاوية ما يؤكد ذلك مثل بنائه كنيسة الرها التى هدمها الزلزال واتخاذه سرجون بن منصور النصرانى مستشارا له ولابنه يزيد من بعده ، اما ماروى من أن معاوية استعمل واليا نصرانيا على خراج حمص فهو خبر موضوع بغير شك ، وهو الخبر القائل أن معاوية ضمن لابن أثال ان يضع عنه الخراج ماعاش

---

(١٤٨) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيره ص ٢٠٠ : ٢٠٤ ، قدامة / نبذ من كتاب الخراج ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٢٥٤ .

(١٤٩) حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٤٣ .

(١٥٠) الدبس : تاريخ سوريا حـ ٥ ص ٣٣ .

ويوليه جباية حمص مقابل أن يحتال فى قتل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند انصرافه من بلاد الروم اذ كان قد عظم شأنه بالشام « لما كان عندهم من اثار ابيه خالد بن الوليد ولغنائه عن المسلمين فى ارض الروم وبأسه » (١٥١) ٠

وقد أبقى المسلمون ما وجدوه من نظم ادارية فى البلاد المفتوحة واصطنعوا الموظفين الذين لم يهربوا عند مقدمهم ، وجرت عادة الحكام على استعمال النصارى فى بعض الوظائف وحدث فى زمن الحجاج أن عمد محمد ابن مروان حاكم شمالى الجزيرة الى قتل انبستاسيوس بن اندريا كبير أهل الزها ، ويضيف راوى الواقعة فى Anonymous Syriac Chronicle « وحتى ذلك الوقت كان النصارى يشغلون مناصب الكتابة والولاية وحكم الاقاليم نيابة عن العرب » ٠ ويشير المقدسى فى القرن ٤ هـ الى أن الكتاب فى بلاد الشام ومصر كانوا من المسيحيين ، كذلك كان معظم المطببين فى بلاد الشام منهم (١٥٢) ٠ ولم يكن فى التشريع الاسلامى ما يغلق دون أهل الذمة ابواب العمل وكان قدمهم راسخا فى الصنائع التى تدر الارباح الوافرة ٠

ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل فى الشعائر الدينية لاهل الذمة، وقد ازدهرت الاديرة ونعمت بالهدوء ، وفى سنة ٢٠٠ هـ ــ ٨١٥ م اراد المامون ــ حسب ما يرويه ميشيل السورى ــ ان يصدر كتابا لاهل الذمة يضمن لهم حرية الاعتقاد وحرية تدبير كنائسهم بحيث يكون لكل فريق منهم مهما كانت عقيدتهم ولو كانوا عشرة انفس ان يختاروا بطريقهم ويعترف له بذلك ، ولكن رؤساء الكنائس هاجوا واحدثوا شغبا ، فعدل المأمون عن اصدار الكتاب ٠ وسادت النسطورية واليعقوبية فى المنطقة ، وكان البطريق الجاثليق للنساطرة يقيم فى بغداد ونشأ حول البطريركية التى عرفت بدير الروم حى سمى دار الروم ، **وازدهرت اسقفيات منها الموصل ونصيبين ، وكان مقر بطريرك اليعاقبة فى انطاكية** ثم نقل الى بغداد اثر اتهام طائفته بالميل الى البيزنطيين ، مع انه روى ان بطريرك انطاكية توج توماس ــ الثائر على بيزنطة الذى قيل انه تحالف مع المامون ــ امبراطورا بيزنطيا ٠ ويلاحظ ان نسطور الذى وصل الى كرسى القسطنطينية سنة ٤٢٧ م قد ولد بمرعش ثم اصبح بطريرك

---

(١٥١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ــ ترجمة دكتور ابى ريده ص ١٢٧ ٠ ١٣١ ، الطبرى حـ ٤ ص ١٢٨ ــ ٩ ٠

(١٥٢) ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ــ ترجمة حبشى ص ١٩ ــ ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٧ ٠

انطاكية ، وكان يقول ان مريم ليست والدة الله لان الله لا يولد من انسان بل هى والدة المسيح فكان فى المسيح اقنومان مستقلان وابنان احدهما من الله والثانى من مريم وقد رفض مجمع افسوس سنة ٤٣١ م هذه العقيدة . اما يعقوب البرادعي فصار اسقف الرها حوالى سنة ٥٤٣ م وتوفى سنة ٥٧٨ م ويقول بالطبيعة الواحدة. وكانت الكنيسة النسطورية تنتخب الجاثليق ويصادق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهد مثل الولاة والمتصرفين ، كما كان يكتب لبطريق اليعاقبة عهد . وكانت الحكومة تراقب كبار رجال الكنائس ، الا ان هذا لا يمنعها من تأييد حقوقهم ، فقد حدث ان قدم على عبد الله بن طاهر ( أفرام ) ورجاله يطلبون تأييده ، كما وفد بطرك انطاكية ديوينسيوس. فاذن الامير للبطرك اولا ، فانبأه بكل ما فعلوه وكيف كانت معارضتهم لاسلافه ودابهم على الشغب واثارة الاضطراب ثم امر عبد الله بادخال الاخر الذى ادعى انه البطرك فعارضه البطرك الشرعى . وامر عبد الله بسؤال آلاف النصارى المجتمعين فى الخارج عن بطركهم الشرعى فقالوا : لا بطرك لنا ولا رئيس سوى ديونسيوس . فنظر عبد الله الى افرام نظرة تعنيف وانبه قائلا « لا تدعنى مرة أخرى اسمع انك لبست البيرق ــ Pallium ثوب يطرح على الراس وينزل على الكتفين وهو قبعة كان جاثليق المدائن ينفرد بلبسه ، وتطور استعماله بحسب الزمان ــ او امسكت عصا الرعوية أو نوديت بانك البطرك واذا سمعت بعد الآن انك سافرت فى البلاد فدمك مهدور » فعاد ديوينسيوس الى انطاكية مبجلا .

أما فيما يتعلق ببناء الكنائس فلم تكن الدولة الساسانية من قبل تسير على خطة ثابتة فى ذلك فكانت تسمح ببنائها احيانا ، على حين ان القانون الرومانى فى العهد الاخير كان يحرم على اليهود ان ينشئوا معابد جديدة لهم ولا يسمح لهم الا باصلاح ماتهدم منها ، اما فى الاسلام فنجد سياسة الدولة تسمح للنصارى احيانا ببناء كنائس جديدة بينما يمنعهم احيانا حتى من اصلاح الكنائس القديمة (١٥٣) . وفى سنة ١٩٦ هـ امر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور وكتب الى السندى بن شاهك يأمره

---

(١٥٣) متز : الحضارة الاسلامية ــ ترجمة دكتور ابى ريده حـ ١ ص ٤٧ ــ ٨ ، ٥٢ : ٤ ، ٥٦ ، حتى : تاريخ العرب ترجمة نافع حـ٢ ص٤٤٨ Bury : Hist. of East Rom. Emp. pp. 88-9. فازيلييف : العرب والروم . ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٧ فروخ : العرب والاسلام ص ١٥ ــ ٦ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ــ ترجمة حبشى ص ٨٦ ــ ٧ .

باخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم (١٥٤) .

وكان الفرض من القواعد المتعلقة بملابس أهل الذمة سهولة تمييز النصارى ، وهذا ما يقره ابو يوسف وابن عبد الحكم وهما من اقدم الكتاب الذين وصلت كتبهم الينا . ويلاحظ ترتون انه لم تكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ، اذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم دون جبر او الزام ، لكن الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد حين اخذ العرب بحظ من التمدن ، اذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم فى ملبسهم والتشبه بهم فى ثيابهم . وقد خلت العهود الواردة فى الطبرى والبلاذرى من الاشارة الى الملابس ، على ان ابا يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هـ سنة ٧٩٨ م وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ سنة ٨٧١ م ينسبان الى عمر قيودا من هذا النحو ، ولعمر بن عبد العزيز اوامر ايضا من هذا القبيل ، ويقول ابن العبرى انه منع النصارى من ارتداء ملابس الجند العرب ويشير مؤرخ سريانى آخر - وكذلك ابو يوسف - الى انه منعهم من وضع السروج على الخيول . ويرى ترتون انه ليس هناك ما يدل على وضع قيود على اللباس قبل عهد عمر بن عبد العزيز . ولما كان زمن الرشيد فرض على الذميين ليس الزنارات مثل الخيط الغليظ بعقد فى وسطهم ، وان تكون قلانسهم مضربة ، وان يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس كرتين من الخشب مثل الرمانة ، وان يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل . وكان بعض هذه الاوامر قد صدر قبل ذلك بخمسين عاما . وفى سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥١ م سار المتوكل على سياسة التشدد ازاء أهل الذمة فنهى عن الاستعانة بهم فى الدواوين او تعليم اولادهم فى مدارس المسلمين ، وأمر المتوكل بالزامهم لبس الطيالس العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة ومخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين عسليتين على ماظهر من لباس مماليكهم فى الصدر والظهر بلون مخالف للون الثوب ، وامر المتوكل باخذ مماليكهم بلبس الزنانير ومنعهم من لبس المناطق ، على انه وردت فى اخبار

---

(١٥٤) الطبرى حـ ١٠ ص ١٠٠ .

الجراجمة ـ كما سبقت الاشارة ـ ما يبيح لهم ارتداء لباس المسلمين سنة ٩٨ هـ سنة ٧١٧ م واعفوا من الجزية لانهم كانوا يقاتلون مع المسلمين ولكن المتوكل الزمهم بالجزية فى عهده .

وترد اخبار متناثرة عن ختم الاعناق ويشير أبو يوسف الى استعماله عند جمع الجزية فحسب ويرى ترتون ان هذا كان امرا شاذا لا قاعدة متبعة ومن الحق الا يحمل العرب وزر هذا العيب اذ لم يكونوا فيه بالبادئين ولا المبتدعين بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم ، ففى سنة ٥٠٠ م ذهب ديموسثنيس الى الامبراطور واخبره بنكبته فوصله الامبراطور بمبلغ غير قليل من المال لتوزيعه على الفقراء ، فلما عاد من حضرته الى الرها ختم على رقاب الجميع باختام من الرصاص ، واعطى كل واحد منهم رطلا من الخبز كل يوم (١٥٥) .

ويذكر جرجى زيدان « ان اشتراط هذه الشروط على النصارى وحدهم **صيانة لبلاد الشام من رجوع الروم اليها بمساعى اهلها النصارى، اذ يكونون عيونا للروم على المسلمين لما بينهم وبين الروم من الرابطة الدينية وهى اقوى الجامعات فى الشرق** » (١٥٦) . وكان الخليفه الاسلامى يمارس الضغط على القسطنطينية عن طريق اضطهاد النصارى احيانا ، وكان النصارى انفسهم يزورون القسطنطينية وبلاطها الامبراطورى كلما أمكنهم ذلك (١٥٧) . ويذكر ان نصارى لبنان كانوا قد انتهزوا فرصة وجود اسطول بيزنطى فى طرابلس سنة ٧٥٦ ـ ٧٦٠م اثناء ولاية صالح بن على العباسى وانقضوا من قاعدتهم المنيطرة فى اعالى لبنان وانتهبوا عددا من قرى البقاع ، وكان هذا سببا فى اجلائهم ونثرهم فى شتى أنحاء الشام على اختلافها . وكان أقدام المتوكل على التشدد فى سياسة التمييز بالنسبة لأهل الذمة سببا فى ان انطلقت فتنة عنيفة فى حمص اشترك فيها النصارى والمسلمون واخمدت بعد مقاومة شديدة ، وخربت الكنائس والبيع ، وصدرت الاوامر للوالى « أن لا يترك فى المدينة نصرانيا الا اخرجه منها ، وينادى فيهم قبل ذلك فمن وجده فيها بعد ثلاثة

---

(١٥٥) الطبرى : حـ ١١ ص ٣٦ : ٨ ، ٤٩ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٨ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ـ ترجمة حبشى ص ١٢٢ : ٧ ، ص ١٣٢ ـ ٣ .

(١٥٦) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى حـ ٤ ص ١١٣ .

(١٥٧) Runciman : Byz. Civ. p. 285.

احسن ادبه » (١٥٨) . على ان البطاركة كانوا اشبه بسفراء سلام بين ملوك الروم ، اذا وقع حيف على المسلمين فى بلاد اعدائهم يندبهم ولاة الاسلام الى مطاالعة الروم بما ينال النصارى فى الشام وغيرها من الاضطهاد ان هم اساءوا الى المسلمين الواقعين فى أسرهم او الراحلين اليهم فى التجارة (١٥٩) . بل ان البطرك تيوفيل الاسكندرى امضى اسابيع فى القسطنطينية سنة ١٠١٦ م فى وساطة بين باسيل الثانى وبين البطرك سرجيوس (١٦٠) .

أما أسرى الروم الذين يقعون فى أيدى المسلمين ، فقد كانت القاعدة العامة هى احسان معاملتهم وربما استرقوا ووزعوا على المقاتلين، وربما فودى بهم غير ان هناك رواية غير عربية تذكر ان المعتصم ( حاول فرض الاسلام جبرا على ٤٠ من كبار اسرى الروم فى عمورية ، وان هؤلاء الأسرى ثبتوا على دينهم - عدا واحدا هو المعزو اليه خيانة قومه وتسليم عمورية للمسلمين ويدعى Boiditzes ، على انه فى النهاية قد لقى مصرعه كالآخرين تماما . وقد أضفت اقلام كتاب الروم جوا اسطوريا على هذه القصة ) (١٦١) .

ونحن نجد البيزنطيين فى الجانب المقابل يحاولون التاثير على الاسرى المسلمين لتنصيرهم ،فيروى فى اخبار فداء سنة ٢٣١ هـ سنة ٨٤٦ م أيام الواثق « ... وكان خرج معنا ممن كان تنصر ببلاد الروم من المسلمين نحو من ثلاثين رجلا ، فودى بهم » ، وفى سنة ٢٤١ هـ سنة ٨٥٥ م يذكر الطبرى ان تدوره صاحبة الروم ام ميخائيل استقبلت نصر بن الازهر الذى قدم لمعرفة عدد أسرى المسلمين لمفاداتهم « فذكر ان تذووة امرت بعد خروج نصر بعرض اسراها واعراض التنصر عليهم ، فمن تنصر منهم كان أسوة من تنصر قبل ذلك ومن ابى عليها قتلته ، فذكر انها قتلت من الاسرى اثنا عشر الفا ، ويقال ان قنفلة الخصى كان يقتلهم من غير أمرها ... » وفى فداء سنة ٢٤٦ هـ سنة ٨٦١ م « كان عدد من صار فى ايدى الروم من المسلمين اكثر من الفين منهم عدة من

---

(١٥٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٩ ، الطبرى حـ ١١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، حتى : تاريخ سوريا حـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١٦٧ : ٩ ، تاريخ العرب - ترجمة نافع حـ ٢ ص ٤٤٥ - ٦ ، ترتون : اهل الذمة فى الاسلام ترجمة حبشى ص ٥٦ .

(١٥٩) كرد على : خطط الشام حـ ٦ ص ١٢ .

(١٦٠) Runciman : Byz. Civ. p. 235.

(١٦١) Bury : Hist. of East Rom. Emp. p. 271.

كان تنصر ... وكان قوم تنصروا فقال لهم ملك الروم : لا أقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء ، والا فليضمن وليمض مع اصحابه . واكثر من تنصر اهل المغرب ، واكثر من تنصر بالقسطنطينية ، وكان هنالك طائفتان قد تنصرا فكانا يحسنان الى الاسرى ، فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين من ظهر عليه الملك الا سبعة نفر : خمسة اتى بهم من سقلية اعطيت فداءهم على ان يوجه بهم الى سقلية ، ورجلين كانا من رهائن لؤلؤة فتركتهما ، قلت : اقتلوهما فانهما رغبا فى النصرانية » (١٦٢)

وساءت معاملة الاسرى بتدهور احوال الدولة الاسلامية واجتراء الروم على الثغور الشامية حتى روى الوزير على بن عيسى فى خلافة المقتدر بالله « كتب الى عاملنا بالثغر ان اسارى المسلمين كانوا فى بلد الروم على حال رفاهية وصيانة الى أن ولى ملك الروم آنفا حدثان منهم فعسفاهم وعاقباهم واجاعاهم واعرياهم وطالباهم بالتنصر وانهم فى بلاء وجهد ». وقد استعان الوزير ببطركى انطاكية وبيت المقدس للمطالبة بحسن معاملة اسرى المسلمين والتهديد بمعاملة النصارى فى الدولة الاسلامية بالمثل (١٦٣). وحين استولى نيقفور فوفاس على طرسوس سنة ٣٥٤ هـ سنة ٩٦٥ م « .... اشترط تخريب الجامع والمساجد ، وانه من اراد المقام فى البلد على الذمة واداء الجزية فعل ، وان تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته . قال : فتنصر خلق فاقرت نعمهم عليهم ، واقام نفر يسير على الجزية ، وخرج اكثر الناس يقصدون بلاد الاسلام وتفرقوا فيها وملك نقفور البلد فاحرق المصاحف وخرب المساجد .. خبرنى جماعة ممن جلا من ذلك الثغر أن نقفور لما فتح طرسوس نصب فى ظاهرها علمين ونادى مناديه : من اراد بلاد الملك الرحيم واحب العدل والنصفة والأمن على المال والاهل والنفس والولد وأمن السبيل وصحة الاحكام والاحسان فى المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا — وعد اشياء جميلة — فليصر تحت هذا العلم ليقفل مع الملك الى بلاد الروم ، ومن أراد الزنا واللغط والجور فى الاحكام والاعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع عليه وغصب الأموال — وعد أشياء من هذا النوع غير جميلة — فليحصل تحت هذا العلم الى بلاد الاسلام . فصار تحت علم الروم خلق من المسلمين ممن تنصر وصبر على الجزية » (١٦٤) .

---

(١٦٢) الطبرى جـ ١١ ص ١٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٥١ — ٢ ، ٦٠ — ١ .
(١٦٣) الصابى : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ص ٣٥٤ : ٦ .
(١٦٤) ياقوت : معجم البلدان حـ ٦ ص ٣٩ — ٤٠ .

وقد بحث الفقهاء المسلمون مشروعية الاقامة تحت حكم غيرهم حين تقع بلاد الاسلام فى ايدى غير المسلمين أثناء الصراع الطويل بين الاسلام والنصرانية في المشرق والمغرب . « وهى نتيجة طبيعيـــة لحالة الحرب الدائمة بين الاسلام والنصرانية على طول العصور الوسطى وعرضها ، بل ترجع الى أواخر ايام مالك بن أنس نفسه وعاصر دورا من أدوارها أقطاب المالكية الاول من أمثـــال عبد الرحمن بن القـــاسم واشهب بن عبد العزيز وسحنون عبد السلام بن سعيد .. فأما أهل المشرق ما بين مسلمين ، ونصـــارى فلم يعتبروها مشـــكلة اذ لم يكن غريبـــا عنهم خضوع النصارى للمسلمين أو المسلمين للنصارى . وقد جرت عادة الجيين على ان تعيش الجماعة المغلوبة فى حكم الغالب فى حدود وقيود لا تبلغ مبلغ القضاء على الدين او اللغة ،و الشخصية . وصاحب الفضل فى ذلك هو التشريع الاسلامى الذى وضع من أول الامر نظاما عادلا لاهل الذمة امنوا به على عقائدهم وشـــخصيتهم من الضياع ، وقد جرى جيرانهم الروم على آثارهم فصار من يقع من المسلمين تحت سلطانهم يعتبر ذميا من وجهة نظرهم يخضع لقيود ويؤدى اموالا ولكنه لا يخشى على عقيدته من الضياع اذا هو احب ان يستمسك بها ، وقد تعارف الحيان على ذلك وعاش النصارى فى ارض المسلمين والمسلمون فى ارض النصـــارى وتكفلت حوادث الايام وضرورات العيش باكمـــال مافات المشرعين » . على ان الامور فى الاندلس لم تجر على هذا النحو وكانت معاملة النصارى للمسلمين حين تغلبوا غير معاملة المسلمين للنصـــارى حين حـــكموا . واختلف الفقهاء مابين محرم للاقامة تحت حـــكم غير المسلمين الا عند العجز عن الهجرة مثل الونشريشى (المتوفى سنة ٩١٤ هـ سنة ١٥٠٨ م وينسب الى ونشريش بالجزائر ) وقد راى ان من اجاز هذه الاقامة مارق من الدين ومفارق لجماعة المســـلمين وان شـــكوى المهاجرين الى ارض الاسلام من ضيق المعاش زعم فاسد وتوهم كاسد ولارخصة لاحد فى الرجوع الى بلاد النصارى بحال ، وان حكم المسلم الذى يزدرى دار الاسلام ويفضل عليها بلاد النصرانية الخزى فى العاجلة والآجلة ، ولا يجوز للمسلم التخلف ببلد النصارى بدعوى خدمة شئون اخوانه لان ذلك يتنافى مع عزة الاسلام ، كما ان الاقامة فى حكم النصارى تحول دون كمال الصلاة وتعطل الزكاة والصيام والحج والجهاد ، وتضع من امر الاسلام وتعرض للاستغراق فى مشاهدة المنكرات ، فضلا عن احتمال نقض النصارى لعهودهم مما يعرض الانفس والاهل والاموال والاعراض للمخاطر ، كما يخشى على المسلمين من غلبة عادات النصارى

ولغتهم ولباسهم بل وفقد اللسان العربى « واذا فقد اللسان العربى فقدت متعبداته » ، فضلا عن التسلط على المال باحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية الى استغراق المال واحاطة الضرائب الكفرية به فى دفعة واحدة فى صورة ضرورة وقتية أو فى دفع « فقد ثبت بهذه المفاسد الواقعة والمتوقعة تحريم هذه الاقامة وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة .. فلا فسحة للفاضل المذكور فى اقامته بالموضع المذكور للغرض المذكور ، ولارخصة له ولا لاصحابه فيما يصيب ثيابهم وابدانهم من النجاسات والاخباث » . بينما كان المازرى (صقلية) المتوفى سنة ٥٣٦ هـ سنة ١٠٤١ م قد ذهب غير هذا المذهب ، فقد كان يكرم من يعبر على افريقية من مهاجرى صقلية ولا يبخل عليهم بالمال والرأى (١٦٥) .

وقد كانت الدولة توجه اضطهادها أحيانا الى رعاياها ، ففى قلب الامبراطورية البيزنطية فى آسيا وارمينية ظهر **البولسيون** Paulicians ( البيالقة ) الذين كانوا يمقتون الرهبنة ، ويعارضون الخزعبلات والخرافات ، ومن هناك نشأ الاباطرة اللاصوريون وناصرهم الجيش الذي كان يجمع على الاغلب من آسيا الصغرى وارمينية وكثير من الموظفين المدنيين والاساقفة (١٦٦) . وفى عهد ميشيل الثانى (٨٢٥:٩م) استفاد توماس فى ثورته التى انتهت بالفشل سنة ٨٢٣ م من سخط انصار الصور ( الايقونيين ) على سياسة الاباطرة المضادة للصور ( اللاايقونية Iconclast ) كما استفاد من تأييد المامون خليفة المسلمين ومع ذلك فاذا كان « حلف توماس مع العرب امده فى الحقيقة بالقوة المادية لكنه من جهة اخرى ابعد عنه الحزب الأرثذوكسى الذى ايده على انه حامى الصور والذى لم يكن يرتضى حلفه القريب مع الكفار . فلما تقدم توماس فى آسيا الصغرى محوطا بجند مسلمين قل الحماس العام الذى كانت اثارته حركته قلة ظاهرة ، وكان لهذا التحول فى شعور انصاره اثر سيء على كل المشروع ، وكان سببا من الاسباب الرئيسية فى الاخفاق» (١٦٧). هذا ولم تصبر الدولة البيزنطية على امر البولسيين ( البيالقة ) وقررت ارجاعهم الى الارثذوكسية أو اهلاكهم فشنقوا بالآلاف

---

(١٦٥) الونشريشى : اسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر – تحقيق وتقديم دكتور مؤنس – صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد م ٥ ع ١ – ٢ .

(١٦٦) بينز : الامبراطورية البيزنطية – ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٣ – ٤ .

(١٦٧) فازيلييف : العرب والروم ترجمة دكتور شعيرة ص ٣٧ – ٨ .

وذبحوا ونزعت املاكهم حتى اضطروا الى الفرار وراء الحدود الى ديار المسلمين حيث آزروهم فى حملاتهم ضد الروم ، وتدل اعمال الشهداء الاثنين والاربعين ان قرباص واصحابه كانوا فى ذمة العرب وراء الحدود فى آخر حكم تيوفيل ( ٨٢٩ : ٨٤٢ م ) فقد حاول واليه على اقليم قلونيه ادخال بعض قادة البولسيين فى الارثذوكسية فلم يكن منهم الا ان اسلموه الى اصحاب قرباص اللعين المرتد ، ثم ارسل والى قلونية الى سامرا فكان شهيدا انضاف الى شهداء عمورية (١٦٨) .

اما بالنسبة للدولة الاسلامية فقد اتجهت بكل قواها لمحاربة طائفة **الخرمية** ، ولما راى بابك تضييق الافشين عليه « واشرف على الهلاك » كتب الى ملك الروم توفيل بن ميخائيل بن جرجس يعلمه ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه ـ يعنى بن دينار وطباخه ـ يعنى ايتاخ ... طمعا منه بكتابه فى أن ملك الروم ان تجرك انكشف عنه بعض ما هو فيه ، يصرف المعتصم بعض من بازائه من جيوشه الى ملك الروم .. فذكر ان تيوفيل خرج فى مائة الف حتى صار الى زبطرة ومعه من المحمرة الذين كانوا خرجوا للجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب ـ جماعة رئيسهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم يستعين بهم فى اهم اموره اليه » . وتظاهر بابك امام تيوفيل باعتناق المسيحية ووعد بتنصير اتباعه (١٦٩) . كذلك تعرض المسلمون الذين توقفوا عن متابعة الراى القائل **بخلق القرآن** الى اضطهاد كبير ، وهو راى قال به المعتزلة وأخذ به الخلفاء العباسيون منذ عهد المأمون وبلغ من تعصبهم لهذا الرأى أن وجه الواثق فى فداء الاسرى سنة ٢٣١ هـ مع ابن ابى دواد رجلين لامتحان الاسرى « فمن قال القرآن مخلوق فودى به ومن ابى ذلك ترك فى أيدى الروم ... وأمر ان يعطوا جميع من قال ان القرآن مخلوق » (١٧٠) .

---

(١٦٨) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ٢٠٠ : ٣ .

(١٦٩) الطبرى حـ ١٠ ص ٣٠٤ ـ ٥ .

Bury : Hist. of East. Rom. Emp. pp. 259-60.

فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٢٤ .

(١٧٠) الطبرى حـ ٧ ص ١٩ : ٢١ .

## الاديرة والرباطات :

جاءت المسيحية تدعو الى الزهد ، وجاء الاضطهاد فى اول الامر فاضطر بعض المؤمنين الى الفرار بدينهم الى البرارى والقفار وهرب آخرون من وطأة الضرائب وقسوة النظام القائم · حتى اذا اطل القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس معتنقو المسيحية الصعداء لم يشاؤا ان يغيروا هذا الاسلوب بل شعروا ان الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة وقالوا بوجوب الابتعاد عن العالم وممارسة حياة التقوى والتأمل ، ولم ينفصلوا عن الكنيسة انفصالا فعليا لكنهم كفوا أنفسهم بأنفسهم وكانوا فى غنى عن الكنيسة · وهكذا قامت الرهبنة منفصلة عن الكنيسة ويمكن اعتبارها من بعض النواحى احتجاجا فرديا على نظام اعان كثيرا على تأييد الدولة وسعت الكنيسة بدورها لتثبيت مركزها ازاء هذه النزعة الجديدة · (١٧١) وظهر فى مصر رواد الرهبنة المسيحية انطونيوس الكبير ( ٢٥٠ : ٣٥٦ م ) وباخوم ( ٢٩٠ : ٣٤٥ م ) · ثم شاع أمر الترهب فى الشام ثم آسيا الصغرى واشتهر رواده هناك باسيليوس الكبير ( ٣٢٩ : ٣٧٩ م ) اسقف قيصرية فى كابادوكيا وهو ممن تعلموا على ليبانيوس الفيلسوف الانطاكى وفى الاسكندرية واثينا وقد زار الشام ومصر سنة ٣٥٧ م فلما عاد الى آسيا الصغرى سنة ٣٦٠ م عزم على الترهب فاختار بنطس حيث ادخلت الحياة الديرية على يد يوستاثيوس من سبسطية Instathius of Sebastea وانشأ هناك ديرا قرب قيصرية الجديدة فوضع نظام الرهبنة الباسيلية القائمة على الطاعة بجانب الفقر والعفة ، واشتهر اتباعه بنشاطهم فى الزراعة وتربية اليتامى وتعليم الصبيان وقد شاعت فى الاقطار الشرقية اليونان والبلقان وروسيا ، وآثر مسيحيو الشام الترهب الفردى على

(١٧١) دكتور رستم : الروم حـ ١ ص ١٠٢ ــ ٣ ، بينز : الامبراطورية البيزنطية ــ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٠ : ١١٣ ·

الجماعى فتركوا المدن والقرى وانتشروا فى السهول والوديان وعلى قمم التلال يتعبدون ، ومن **أشهرهم مارمارون المتوفى سنة ٤١٠ م وكان مقره فى سوريا الشمالية ويرجح لامنس انه عاش ومات فى القورسية** Cyrrhus **وعاصمتها قورس على مسيرة يومين من انطاكية وعلى نحو ٧ كم من حلب الى شمالها الغربى وهناك رأى آخر ان مارمارون تنسك على جبل فى ابامية (قلعة المضيق)** . وقد وجه اليه يوحنا الذهبى الفم رسالة من منفاه فى مدينة كوكيسوس Caucesus بجبال طوروس طالبا منه الصلاة من أجله سنة ٤٠٤ م أو سنة ٤٠٥ م واجتذب مار مارون تلاميذ عديدين رجالا ونساء التفوا حوله فى صوامع قريبة . وهكذا نشأت اخوية مارونية تعمل بتعاليم هذا الناسك . (١٧٢) وهناك ايضا **اوجينيوس** Eugenius **احد رواد الديرية فى الشام** الذى تربى على الحياة الدينية فى دير القديس باخوم واستقدم ٧٠ راهبا الى الجزيرة، وأسس ديرا بجوار نصيبيين ويذكر ان شخصا يدعى **جوليان ادخل الديرية فى أعالى الفرات فى** منطقة Osrhoene وعاش **القديس جيروم متنسكا فى خلكيس** Chalcis بجوار انطاكية سنين عددا . وتناثرت الاديرة فى ارجاء الشام وقد ذكرها المؤرخون . وعاش الرهبان فى الشام فى وحدة يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولا يخضعون لاى رقابة . وقد مارسوا الوانا من اضناء جسومهم دون ضابط أو حاجز ، وأخذ زهدهم صورا عنيفة متعسفة أحيانا مثل القديس سمعان العمودى ( سان سيمون ) الذى خلق لونا من الزاهدين توالى على مر القرون . ثم أدت عواصف الخلافات الدينية والهرطقة التى ثارت فى الاسكندرية وانطاكية كما ادت حملات العرب الى عزل كل الاديرة تقريبا فى وادى النيل ومعظم الاديرة فى أقاليم الارنط والفرات ودجله عن المذهب الارثذوكسى السائد . وقد صارت هذه الاديرة جماعات منعزلة لا تشارك فى حياة الاسرة الديرية الكبيرة التى كانت تراثا لانطونيوس وباخوم . وهكذا انتشرت الديرية من مصر والشام وبلغ تيارها آسيا الصغرى، رغم ان المناخ القاسى فى بعض مواضعها كان لا يلائم اصطناع أسلوب حياة النسك والزهد . (١٧٣) .

وقد أدت الاديرة دورا ثقافيا جليلا بجانب مهمتها الدينية ، فقد انكب الرهبان فى اديرة الشام على ترجمة المؤلفات الدينية وغير الدينية.

---

(١٧٢) دكتور رستم : الروم حـ ١ ص ١٠٣ : ٦ .

(١٧٣) Byzantium. pp. 139: 141

من أمثال مؤلفات ارسطو وابقراط وجالينوس ووجد النسطوريون الذين اضطهدتهم الحكومة البيزنطية وأدانهم المجمع الديني المسكوني الثالث سنة ٤٣١ م ملجأ في فارس الساسانية وحملوا اليها علوم الاغريق (١٧٤) . وما برحت الديارات في الشام تقدر البلاغة كما تقام فيها للموسيقى أسواق ، وقد عرفها المسلمون منذ فتحوا الشام قال معاوية ابن قزمل : كنت مع خالد بن الوليد حين غزا الشام فخرجنا فرفع لنا دير فاتيناه فقلنا : السلام عليكم فخرج الينا قس فقال : من أصحاب هذه الكلمة الطيبة؟ (١٧٥) . ولا يرى دير من الديارات الا وهو محصن بسور مكين شاهق يحميه ويصد عنه العدوان ، ولا يخلو دير كبير من خزانة كتب دينية وأدبية وعلمية كانت مجمع الرهبان الباحثين يقرأون وينسخون ويترجمون ويؤلفون كما كان للديارات الجليلة دور ضيافة للزوار اذ لا يباح لهم المقام في صوامع الرهبان . وكان بعضها على فخامة تستدعي انتباه كبار الزائرين وأن تيسر الماء زرعت حول الدير البساتين (١٧٦) .

ومن غريب الامر أن هذه الاديار « كانت منبعا لشيئين متناقضين أشد التناقض : كانت منبعا لزهد وورع وبعد الدنيا ، **ومحطا لبعض زهاد المسلمين يروون عن الرهبان اقوالهم في الهرب من اللذات ....** وكانت كذلك مناخ الخليعين من الشعراء والادباء يخرجون اليها ويتشببون بفتيانها وفتياتها ويقولون في ذلك القول الخليع والشعر الجميل ذلك ان الاديار كانت غالبا في اجمل المواضع واحسنها هواء واجملها منظرا ، تحيط بها انواع البساتين وتجمل فيها الازهار والرياحين ... ويظهر ان الخمارين استغلوا شهرة الاديار بالشراب فانشأوا حولها الحانات قال ابن فضل الله العمري ( وكان حول دير العزازي حانات للخمارين والسائلين ومتنزهات ) وكانت تقام لبعض الاديار اعياد سنوية ... وهكذا كانت الاديار مصدرا لنغمتين كان الناس يسمعونهما كثيرا في ذلك العصر : نغمة حزينة زاهدة تدعو الى الفرار من الحياة وارتقاب الموت ونغمة مرحة لاهية تدعو الى احتساء الكأس الى آخر قطراته ... » (١٧٧) .

---

(١٧٤) فازيلييف : ترجمة فصل الاسلام وبيزنطة من كتاب Byzantium ـ ملحق بكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٣٧٤ .

(١٧٥) كرد علي : خطط الشام حـ ٤ ص ١٣٩ .

(١٧٦) مقدمة كوركيس عواد لكتاب الديارات للشابشتي ص ٣١ ـ ٢ .

(١٧٧) احمد امين : ضحى الاسلام حـ ١ ص ٣٤٩ : ٣٥١ .

**وقد انتشرت الديارات في الجزيرة وأعالي الشام ومنها ما كان حول الثغور جزرية وشامية** ومن اديرة الجزيرة : الدير الأعلى بالموصل الذى كان مركزا أساسيا لطقوس الكنيسة الكلدانية يصفه الشابشتى بانه « دير كبير عامر .. فيه قلايات كثيرة لرهبانه » ويصفه العمرى بانه « يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن المستشرف تحته ... والجزائر تتفرق خلجانها وغدرانها بازائه ولم تزل الولاة تخرج اليه للطف الهواء والنظر فى الماء ويقال انه ليس للنصارى دير مثله » . وفى الجانب الشرقى من الموصل فى موضع نينوى دير ينسب ليونس بن متى النبى ويذكر العمرى دير متى « على جبل شامخ حسن البناء جيد الحصانة .. ورهبانه لا يأكلون طعاما الا جميعا ... وله عدة أبواب مفرطة فى الكبر ، وكلها من حديد . مصمت » ودير الشياطين غربى دجله من أعمال بلد بينهاوبين الموصل . وعمر نصيبيين مما يلى الجانب الشرقى منها فى الجبل والجبل مشرف على البلد ويقول عنه الشابشتى « وهو من الديارات الموصوفة والمواقع المذكورة بالطيب والحسن وحوله الشجر والكروم وفيه عيون تتدفق وهو كثير القلايات والرهبان وشرابه موصوف يحمل الى نصيبيين وغيرها وليس يخلو من أهل القصف واللعب فهو وسائر بقاعه معمورة بمن يطرقها. وبهذا الجبل ثلاثة ديارات أخر فى صف واحد أحسن شيء منظرا واجله موقعا : وهى عمر الزعفران ومر ومر اوجى ومر يوحنا والعمر الكبير بالموضع أحد متنزهات الدنيا ، واسفل الجبل الهرماس وهو نهر نصيبين ... ويجرى هذا النهر بين جبلين وعلى حافته الكروم والشجر .. » ويقول العمرى : « وبه كثير من الزعفران وهو عجيب البناء كثير الرهبان وماؤه من صهاريج يجتمع فيها ماء السماء والصهاريج منقورة فى صخور والثلج به ممكن .. قال الخالدى، ولهذا الدير بيوت للضيافة فى علو الهيكل وللسور تسور عجيب وعليه أبواب من حديد مصمت . قال : وشعر زعفرانه فائق ومنه ومن العسل اكثر يسار رهبانه » . وانشيء دير ماراوجين فى الجبل المشرف على نصيبين فى أواخر المائة الرابعة باسم القديس اوجين الناسك القبطى الاصل الذى نشر الرهبانية فى بلاد الشرق واستولى الكلدان عليه فى المائة السادسة وهناك عمر أحويشا وتفسيرها بالسريانية الحبيس ، وهو بسعرت من ديار بكر قرب ارزن يقول عنه الشابشتى « وهو كبير عظيم ، فيه اربعمائة راهب فى قلالى ، وحوله بساتين وكروم وهو فى نهاية العمارة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والخمور ويحمل منه الخمر الى المدن المذكورة وبقربه عين عظيمة تدير ثلاثة أرحاء والى

جانبه نهر يعرف بنهر الروم . وهذا العمر مقصود من كل موضع للتنزه فيه والشرب والخلعاء والمتطربون أغلب عليه من أهله » . وبالرقة دير زكى من أديار السريان المشهورة على جانبيه نهر البليخ « وهو من أحسن الديارات موقعا وانزهها موضعا وكانت الملوك اذا اجتازت به نزلته وأقامت فيه ... وبناحيته الغزلان والارانب وما شاكل ذلك مما يصطاد بالجارح ... » . ودير القائم الاقصى على شاطىء الفرات من جانبه الغربى فى طريق الرقة ويذكر العمرى « وهو مرقب من المراقب التى كانت بين الروم والفرس على أطراف الحدود » . ودير الرمان بين الرقة والخابور تنزلها القوافل من العراق للشام. ودير قنسرى على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى فى نواحى الجزيرة وديار مضر مقابل جرباس. وجرباس شامية ، وبين هذا النهر ومنبج ٤ فراسخ بينه وبين سروج ٧ فراسخ ، ويصفه ياقوت بانه « دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلثمائة وسبعون راهبا » . وقد ذكر الشابشتى ديارات عرفت بالعجائب فمنها دير الخنافس فى شرقى الموصل فاذا ظهرت الخنافس فى يوم معين من السنة التالية كان اليوم التالى هو عيد الدير واجتمع الناس «فقسوا وتقربوا وانصرفوا وقد غابت الخنافس فلا يرى منها شىء الى ذلك الوقت » . ودير الكلب بين الموصل فى الجانب الغربى من أعمال الحديثة « تحته عين قير ، وهى عين تفور بماء حار تصب فى دجلة ويخرج منه القير .. وله قائم وكل دير لليعقوبية والملكية فعنده قائم ، فاما ديارات النسطور فلا قائم لها » . وقيل ان القائم منارة عالية كالمرقب ، وقيل انه شبه صومعة تتخذ الى جانب بعض الاديار لسكنى النساك . وبميافارقين دير مارقوما - وذكر أحيانا برقوما وفرتوما على فرسخين منها فى جبل مال وقيل ان برقوما هذا شهد المسيح ، وللدير عيد يجتمع الناس اليه . وهناك دير ابون بين الجزيرة وثمانين يذكره العمرى فيقول « وهو دير جليل عند النصارى ، وبه جماعة من الرهبان ، ويزعمون انه قبر نوح عليه السلام » .

وقد ذكر عن دير سعيد بالجانب الغربى من الموصل ان لترابه ومائه أثرا فى دفع العقارب ويقول العمرى « وحكى ان رهبانه الزموا بجباية فقاموا بثلثمائة ألف درهم » . ودير مارمخايل على ميل من الموصل يقول عنه العمرى « وبه قلالى كثيرة فى غاية الظرف محفوفة بأنواع الشجر وأصناف الزهر ، وله عيد يكون قبل الشعانين باسبوع ، تخرج اليه النصارى بنسائهم وصبيانهم ويمر لهم فيه يوم وليلة تتجاوب فيه الحان الاغانى وقراءة الرهابين . وحكى انه أريد به حفر بئر فى بعض قلاليه » .

فأفضى الحفر الى صندوق من حجر فكشف فاذا فيه ميت لم يتغير من جسمه شيء واذا ثيابه صحيحة وعند رأسه صحيفة من صفر فيها كتابة قديمة لم يقفوا على قراءتها ولكنهم علموا ان فيها ذكره ، وقصد المسلمون انتزاعه منهم ، ثم دارت النصارى حتى خلى لهم فردوه الى مكانه وعفوا اثره » .

وفي شمالي الشام ديرا اسحاق بين حمص وسلمية ودير ميماس بين دمشق وحمص على نهر ميماس يذكره العمرى فيقول « وهو فى رياض وبساتين وعليه طواحن رومية ، وزعم رهبانه ان به شاهدا من الحواريين» ودير مارمروثا صغير بظاهر حلب في سفح جبل جوشن ، ودير خناصرة قبلي حلب ودير رمانين أو السابان بين حلب فانطاكية مطل على سرمد ، ودير حافر بين حلب وبالس ، ودير جشيان بنواحي حلب من العواصم ، ودير مرقس من نواحي حلب ، ودير مسحل بين حمص وبعلبك ، ودير المغان أو المعان بحمص . وهناك دير كفتون بطرابلس يقول عنه العمرى «يحمل نارنجه الى طرابلس يباع بها ويرتفق بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع ومنه مكان يشرف على بعد على البحر . ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة ، وبه رهبان كثيرو العدد ، والنصارى تقصده وتحمل اليه النذور ، ويقصده كثير من أهل البطالة واللهو للتفرج به والتنزه فيه » . وكان لماروث دير عظيم شرقى حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله أكثر من ٣٠٠٠ صومعة وفيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم وهو قرب نهر الارنظ . ويقول ابن بطريق عن مارون « وكان يقول ان سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد واقنوم واحد . **واكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به أهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من ارض الروم فسموا الموارنة** .. وقد خرب دير مارمارن سنة ٧٥ للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه ٥٠٠ راهب وهدما بنيانه ، ثم تحولا من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الاهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن أحد من اتباع مارمارون » . ودير حمطورا فى شرقى طرابلس فى جانب الوادى فى سفح الجبل يقول عنه العمرى « وهو حصين جدا لا يسلك اليه الا من طريق واحد وظهر الجبل الذى له ممتنع » .

وفى نواحي الثغور يذكر ابن فضل الله العمرى **دير المحل بساحل** جيحان قرب المصيصة **ودير الرصافة** قرب رصافة هشام بن عبد الملك **ودير القاروس** على جانب اللاذقية من شمالها . ويذكر **ياقوت دير**

سمعان الذى يقول عنه ابن بطلان فى رسالته « وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة ، وقيل ان دخله فى السنة أربعمائة الف دينار ومنه يصعد الى جبل اللكام » • وقد اشتهر دير برصوما قرب ملطية • ويقول عنه ياقوت « هو الدير الذى ينادى له بطلب نذره فى نواحي الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم •• على راس جبل يشبه القلعة وعنده متنزه وفيه رهبان كثيرة يؤدون فى كل عام الى ملك الروم للمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار على ما بلغنى •• حدثنى العفيف مرجا الواسطى التاجر قال : اجتزت به قاصدا الى بلاد الروم فلما قربت منه اخبرت بفضله وكثرة ما ينذر له وا نالذين ينذرون له قل ما يخالف مطلوبهم وان برصوما الذى فيه أحد الحواريين فالقى الله على لساني ان قلت : ان هذا القماش الذى معى مشتراة بخمسة آلاف درهم فان بعته بسبعة آلاف درهم فلبرصوما من خالص مالى خمسون درهما • فدخلت ملطية وبعته بسبعة آلاف درهم سواء فعجبت فلما رجعت سلمت الى رهبانه خمسين درهما وسألتهم عن الحوارى الذى فيه فزعموا انه مسجى فيه على سرير وهو ظاهر لهم يرونه وان أظافره تطول فى كل عام وانهم يقلمونها بالمقص ويحملونها الى صاحب الروم مع ماله عليهم من القطيعة ، والله أعلم بصحته فان صح فلا شىء أعجب منه » (١٧٨) وقد روى ابن الشحنة انه كان بحلب نيف وسبعون هيكلا للنصارى ، كما ذكر مشاهد كثيرة بنواحي حلب المختلفة وما حولها منها مقامات لأنبياء مثل مقام ابراهيم ومشهد الخضر ، ومقام داود ، وقبر يوشع بن نون ، « ومن شمالى حلب عمود تنذره المسلمون والنصارى واليهود ويقال ان تحته قبر نبى •• قال : وبجبل الطور المجاور لقنسرين مشهد ، ذكر الشيخ على بن أبى بكر الهروى ان فى جبل قنسرين مشهدا يقال انه مقام صالح النبى عليه السلام ، ويغلب على ظنى ان هذا المشهد من بناء صالح ابن على ابن عبد الله ابن العباس فان ولاية الشام كانت اليه وله آثار

---

(١٧٨) الشابشتى : الديارات ص ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٦ ـ ٧ ، ١٣٩ ، ١٩٥ : ٧ ، العمرى : مسالك الابصار حـ ١ ص ٢٥٤ ـ ٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ـ ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ـ ٥ ، ٢٩٩ : ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ : ٢ ، ٣٣٤ : ٣٣٦ ، الذيل لكوركيس عواد ص ٢٣٧ ـ ٨ ، ياقوت : معجم البلدان حـ ٤ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٦٤١ : ٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٥ ـ ٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ـ ١٧٨ ، ١٨٥ ، كرد على خطط الشام ص ٢٥ : ٣٧ •

بحلب وقنسرين فنسب المشهد اليه ... قال: وبانطاكية قبر حبيب النجار فوق آل ياسين وبها قبر عون بن ارميا النبى عليه السلام ، وقبر عوص ابن سام بن نوح . قال : وقال كمال الدين بن العديم بسند يرفعه الى كعب الاحبار : ان بطرسوس من قبور الانبياء عشرة وبالمصيصة خمسة والبقية بسواحل الشام » (١٧٩) .

◆ ◆ ◆

**ومن ناحية المسلمين كان للشام والجزيرة عندهم ذكر وفضل ».**
فقد ورد عن النبى انه بشر أصحابه بفتح الشام والعراق « فقلت يا رسول الله من يستطيع الشام وفيه الروم ذات القرون ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والله ليستخلفنكم الله فيها حتى تظل العصابة منهم البيض قمصهم المحلوق اقفاؤهم قياما على الرجل الاسود ما أمرهم به فعلوا ، وان بها اليوم رجالا لأنتم اليوم أحقر فى أعينهم من القردان فى اعجاز الابل ،

قال ابن حوالة : قلت اختر لى يا رسول الله ان أدركنى ذلك فقال: **اختار لك الشام فانها صفوة الله من بلاده واليها يجتبى صفوته من عباده .. فان الله قد تكفل لى بالشام وأهله »** . ونقل المقدسى حديثا عن النبى : ان الله عز وجل أوحى الى : أى هؤلاء الثلاث نزلت فهى دار هجرتك ـ المدينة أوالبحرين أو قنسرين ونقل ابن الشحنة عن ابن العديم حديثا عن النبى : ليلة أسرى بى الى السماء رأيت قبة بيضاء لم أر أحسن منها وحولها قباب بيض كبيرة ، **فقلت : ما هذه القباب يا جبريل ؟ قال هذه ثغور أمتك ، فقلت : ما هذه القبة البيضاء فانى ما رأيت أحسن منها ؟ قال : هى انطاكية هى أم الثغور وفضلها على الثغور كفضل الفردوس على سائر الجنان ، الساكن فيها كالساكن فى البيت المعمور يحشد اليها خيار امتك وهى سجن عالم من أمتك وهى معقل ورباط وعبادة يوم فيها كعبادة سنة ومن مات فيها من أمتك كتب الله له يوم القيامة أجر المرابطين** . وقد علق الغزى على هذا الحديث بقوله « هذا الحديث غريب وان كان لا يخلو من الدلالة على فضل هذه المدينة » ويذكر ابن العديم عن جبل اللكام «وهو مسكن العباد والزهاد ، وفيه من الفواكه المباحة ما يقتاتون به » ويقول عن طرسوس « وبها كان يقوم سوق الجهاد ويتنزلها الصالحون والعباد » وهو يروى الكثير فى زهادها وفضلها . ونقل ابن الشحنة عن ابن العديم بسند يرفعه الى كعب الاحبار : « **ان بطرسوس**

---

(١٧٩) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٨١ : ٤ ، ٩٢ : ٩ .

**من قبور الانبياء عشرة ، وبالمصيصة خمسة ، والبقية بسواحل الشام »· وذكر ياقوت عن طرسوس « وقد نسبوا الى هـذا الثغر جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد ·· كذا نسبوا غير واحد من المحدثين » · « وما زالت موطنـا للصالحين والزهاد يقصدونها لأنهـا من ثغور المسلمين » ، وقال « قد رابط بهـا الصالحون قديمـا »** · وذكر المقـدسي عن الجزيرة ( اقليم اقور ) « ··· به مشـاهد الانبياء ومنـازل الاولياء به استقرت سفينة نوح على الجودى وبه سكن أهلها وبنوا امدينة ثمانين وبه تاب الله على قوم يونس واخرج منه العين ومنه دخل الظلمات ذو القرنين وبه كانت عجائب جرجيس مع اذيانة ووفيه أنبت الله تعـالى ليونس اليقطين ومنه خرج نهر الملة المبـارك المذكور دجلة ، أليس به جبل يونس بتل توبه : يقولون سبع زورات له يعدلن حجة ، مع مشاهد كثيرة وفضائل جمة ثم هو ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم ·· »

**وبحكم وقوع الثغور الشامية والجزرية على حدود العـدو ، كان المسلمون الأتقياء يجاهدون بالرباط فى الثغور لحماية بيضة الاسلام ورد عادية المعتدين** « يايها الذين آمنو أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » · وقد أورد ابن العديم عن أبى الدرداء « أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم واماؤهم الى منتهى الجزيرة مرابطـون فى سبيل الله فمن احتل منهم مدينة فهو فى رباط ومن احتل منها ثغرا من الثغور فهو فى جهاد » وفى رواية « فمن احتل ساحلا من تلك السواحل فهو فى جهاد ومن احتل بيت المقدس وما حوله فهو فى رباط » (١٨٠) » ·

وكانت الربط فى أول الأمر مجرد حصون تقام فى الجهات الأكثر تعرضا لغارات العدو تشحن بالمقاتلة والمؤن لصد المغيرين · وحين أنشا عقبة بن نافع القيروان قال له أصحابه « نريد أن نقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط » · وفى افريقية توسـع الأغالبة فى بناء الربط وكانت تسمى القصور والمحارس فانتشرت على ساحل البحر وكان الناس اذا دهمهم الغزاة يفزعون اليها ويتكاتفون فى مواجهة الخطر ولم تستطع **الأساطيل البيزنطية فى القرن الثانى الهجرى أن تنال من السـاحل**

---

(١٨٠) القدسي : أحسن التقاسيم ص ١٥٦ ، ١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص٢١٩ : ٢٢١ ، ج ٣ ص ١٨ ، ج ٦ ص ٣٨ ، ج ٨ ص ٨٠ ، ابن العديم : بغية الطلب مخطوط ص ٥٨ ، ١٠٦ : ٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ : ٢٦١ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٩٩ الغزى : نهر الذهب ج ١ ص ٦٧ ، ٣٩٠ ·

الافريقى . **وساعد انتشار الاســـلام وعلومه على أن تتحول الربط من وظيفتها الأولى الى وظيفة تعليمية** حتى قيل « ان قصـــور زياد المرابط بساحل افريقية ( دار مالك ) لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك » . كما أشاع المالكية فى اريقية والمغرب موجة من الزهد والورع فهرع أهل التقى الى المحارس والقصور والربط فرارا من الدنيا وطلبا للعبادة فى وقت معلوم أو طول العمر ، وتناقل الناس عن هؤلاء العباد قصصا أقرب الى الاساطير . وقد كان لهذه الرباطات مزاياهـــا ووقت المسلمين غوائل فتن كثيرة ، « **وقد كانت حركات المرابطة فى الشـــام والمغرب متشابهة الى حد كبير ، ففى بلاد الشام على الحدود البيزنطيـة الاسلامية انتشرت الثغور والربط ، آوى اليها المتعبدون والزهاد للدفاع عن الاسلام والعزلة والتقشف** ، أما فى المغرب فقد انتشرت فى موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين المقصور والحصون والمحـارس والربط لأداء نفس الدور الذى كانت تؤديه ربط بلاد الشام . ولم يكن **التشـــابه فى الهدف فحسب ، بل كان فى عمارة هذه القصور وهذه الرباطات ... واذا عرفنا ان التاثيرات الشامية بيزنطية وان افريقية كانت تخضـــع للنفوذ البيزنطى أدركنا سر هذا التشابه فى عمارة هـــذه القصـــور ،** وعلمنا ان التأثيرات البيزنطية واضحة فى ربط بلاد الشام والمغرب . التى كانت فى الواقع حصونا بيزنطية أقيمت فى الموانى وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الســاحل الطويل . وكان البيزنطيون يقيمون ســلسلة من الحصون الشامية على الحدود فيشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أى عدوان وهو ما يعرف بنظام الثغور ـ اذن هنالك تأثيرات مسيحية فى عمارة الربط ، تأثيرات بيزنطية واضحة لاشك فيها . ولكن اذا عرفنا أن الربط الاسلامية كانت فى أول الأمر تؤدى غرضا حربيا .. **أدركنا أن** هناك تشابها بين الربط الاسلامية وبين الحصون البيزنطية التى أقيمت على سواحل المغرب ، ولكن بلاد المغرب تحولت فيها الربط الى أماكن للعبادة والانقطاع والتقشف صيام النهار قيـام الليل واضناء البدن ومجـاهدة النفس .

لقد كان الثغر عنوانا للدولة الاسلامية ، وهو يمثـــل الفروسـية والعلم والحضارة معا « والدولة حريصة على ابراز قوتها الدفاعية ولكنها حريصة على أن تبرز قوتها الحضارية أيضا اذ تؤمن بأن الحضارة قوة أمضى من السيف فى تاليف الشعوب المجاورة أو التحالف معها واخضاعها أو

منع عدوانها ... وان من العلماء من كانوا يقصدون الثغر ويقيمون فيه طلبا للرباط والتعليم بحيث أمكن أن يوجد فى المصيصة وحدها بين سنتى ٢١٩ ، ٢٢٥ هـ ١٢ عالما كبيرا ... وكان علماء المصيصة فى الأصل من اليمامة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وخراسان . وسرى فى الثغور نوع من التصوف نتيجة الحرص على اخفاء حسن البلاء فى المعركة والزهد فى التفاخر به » (١٨١) .

**والفقهاء يتناولون المرابطة فى سبيل الله فى أبواب النذور من كتب الفقه** ، وقد كان المسلم يقصد الثغر للرباط فيه والدفاع عنه مدة حياته أو جزء منها ، ويلتحق به ثان وثالث من أمثاله وهكذا ، حتى تتكون جماعة فيبنون الرباط الذى يسكنونه ، ويدخرون فيه حاجياتهم من أسلحة وأمتعة وزاد ويقوم شيخ الرباط على ادارته وتثقيف ساكنيه وتوجيههم وتربية نفوسهم . ولكل من المرابطين صناعة يدوية يحذقها أو تلقن له ليكسب منها قوته ولباسه وزاده وحتى أدوات حربه ــ فهو لا يعتمد فى شىء من ذلك على الناس ، ولا تمر مدة طويلة حتى يصبح الرباط معهدا للعلم يلقى فيه العلماء المرابطون على من يأتى اليهم من الطلبة من الجهات المجاورة قصد المرابطة أو طلب العلم دروسا دورية فى علوم الدين واللغة والتصوف وحتى فى الصناعة والتمريض . وكلما أتمت جماعة معلوماتها بارحت المكان وخلفتها أخرى . وكثيرا ما كانت الرباطات مستوصفات طبية لمعالجة الفقراء بالمجان على يد أطباء يتطوعون لهذا الغرض وكانت فى بعض الاحيان كمطابع تخرج الكتب وتعين على نشر العلم ، اذ يعمد أحد المرابطين الى املاء كتاب على عشرة من تلاميذه فيخرج منه عشر نسخ . وكان الصناع من المرابطين ينفقون ما يبيعون به مصنوعاتهم على حاجياتهم ويوفرون الباقى لينفقوه فى مصلحة الرباط. وازدهرت الرباطات ولفتت نظر الناس اليها واشتهر القائمون فيها بالعلم والصلاح نتيجة الدرس والمجاهدة فاخذ الناس يوفرون لها الأموال

---

(١٨١) دكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٨ : ١٤٠ .
دكتور شعيرة : المرابطون فى الثغور البرية العربية الرومية ــ بحث فى كتاب ( الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ) .

ويجلبون اليها الأرزاق وأخيرا وقفوا عليها الدور والبساتين والمزارع الواسعة لتوفير نفقاتها اللازمة وضمان بقائها وقيامها بما أنشئت له من اصلاح النفوس وحماية الثغور .. الا انه بعد ترك المسلمين لامر الجهاد والمرابطة أضحت الرباطات دور علم فقط ، وأخذت شكل زاوية تضم ضريح المؤسس الأول لذلك الرباط ، وربما أضرحة تلاميذه واتباعه أو أفراد كتيبته على أصح تعبير وصارت الاوقاف التى رصدت له تصرف على اطعام أبناء السبيل وطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم ، يقصدها هؤلاء من كل مكان ، ويقيمون بها مكفولين بالسكن والاكل والملبس حتى يتم لهم ما أرادوه من استظهار القرآن ومبادىء العلوم بواسطة شيوخ تصرف لهم جرايات من الوقف .. (١٨٢) » . وقد أوقف الكثيرون على المرابطين فى طرسوس « ليس من مدينة عظيمة من حدسجستان وكرمان .. الى مصر والمغرب ، الا وبها ـ طرسوس ـ لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها . وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقف من فنادق » (١٨٣) .

وقد نقل ابن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك انه أملى هذه الأبيات بطرسوس في رسالة منه الى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ أو سنة ١٧٧ هـ :

| | |
|---|---|
| يا عابد الحرمين لو أبصرتنا | لعلمت انك فى العبادة تلعب |
| من كان يخضب خده بدموعه | فنحورنا بدمائنا تتخضب |
| أو كان يتعب خيله فى باطل | فخيولنا يوم الصبيحة تتعب |
| ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا | رهج السنابك والغبار الاطيب |
| ولقد أتانا من مقال نبينا | قول صحيح صادق لا يكذب |
| لا يستوى غبار خيل الله فى | أنف امرىء ، ودخان نار تلهب |
| هذا كتاب الله ينطق بيننا | ليس الشهيد بميت لا يكذب |

(١٨٢) محيى الدين القليبى : مقال : الرباط فى سبيل الله ـ مجلة رسالة الاسلام السنة الرابعة العدد ٣ شوال سنة ١٣٧١ هـ ـ يوليو سنة ١٩٥٢ م .

(١٨٣) ابن حوقل الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٧ .

فانطلق حامل الرسالة فلقى الفضيل بن عياض بها فى المسجد الحرام فلما قرأها ذرفت عيناه وقال : صدق أو عبد الرحمن ونصحنى (١٨٤) .

وروى ابن الشحنه ان بظاهر جبلة قبر ابراهيم بن أدهم أصله من بلخ « وكان أبوه ملكا **فترك الدنيا اختيارا لا اضطرارا وجعل الثغور الشامية له منزلا ودارا** ، مات سنة احدى وسنتين ومائة » . (١٨٥) ويذكر ان من الأولياء طائفة يسمون الابدال ، وهم « فئة من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم أبدا وعددهم سبعون : أربعون منهم فى الشام وثلاثون فى سائر البلاد » . وقد ورد فى طبقات الحفاظ للذهبى عن أبى ثوبة المتوفى سنة ٢٤١هـ الذى ولد بحلب وعاش فى طرسوس انه كان من الابدال (١٨٦) .

وأورد ياقوت أسماء **كثير من العلماء نسبوا الى الثغور** فمن طرسوس أبو أمية محمد ابن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسى الثغرى ، وهو بغدادى المولد سكن طرسوس الى ان مات بها سنة ٢٧٣هـ . ونسب الى انطاكية جماعة كبيرة من أهل العلم منهم عثمان بن عبد الله بن محمد بن خرداذ الانطاكى أبو عمرو محدث مشهور مات فى انطاكية فى المحرم سنة ٢٨٢ هـ وقد روى عنه أبو عثمان سعيد بن حرب البغراسى نسبة الى بغراس . وهناك عمر بن على بن الحسين أبو حفص العتكى الخطيب وقد غادر انطاكية فى طلب العلم ثم رجع اليها مستنفرا سنة ٣٥٩ هـ فحدث بها وبحمص ، وهناك ابراهيم بن عبد الرازق أبو يحيى الازدى ويقال له العجلى الانطاكى ، مات بانطاكية سنة ٣٣٨ هـ أو سنة ٣٣٩ هـ . وينسب الى منبج جماعة منهم عمر بن سعد بن أحمد بن سنان أبو بكر الطائى المنبجى وقال ابن حبان **انه صام النهار وقام الليل مرابطا ثمانين سنة** فارساله مقبول (١٨٧) .

---

(١٨٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٤٧ .
(١٨٥) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٠١ .
(١٨٦) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة جـ ٢ ص ٣٠ ــ ١ والهامش .
(١٨٧) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٨ ، جـ ٦ ص ٣٨ ، جـ ١ ص ٣٥٨ ــ ٩ ، جـ ٢ ص ٢٤٥ ، جـ ٨ ص ١٧٠ ــ ١ .

## التأثير المتبادل فى الفكر الدينى :

واجه المسلمون فى الشام « نظاما دينيا كان قد تطور تطورا عمليا وأصبح يقوم على أساس منطقى بفضل سلسلة طويلة من المناقشات المذهبية والمجادلات » • كما واجهوا فى الجزيرة والعراق ديانات وثنية قديمة « وقد نتجت عن اصطدام الاسلام الشديد بتلك الديانات مركبات وآثار عديدة ، وكان لتلك المعارك الفكرية وما ترتب عليها من تغيير فى الافكار أثر عميق فى تاريخ الشرق الدينى فى العصور التالية » • وقد كانت المسيحية أول دين اتصل بالاسلام عن قرب اذ كانت دمشق فى وقت من الاوقات مقرا للخلفاء الامويين وتقدمت فيها فى ذلك الوقت مدرسة دينية تخرج منها بعض علماء الكنيسة الشرقية البارزين كما ازدهرت حياة فكرية نشطة • وكانت المناقشات الدينية كثيرة بين علماء الدين المسلمين والمسيحيين وقد شجع التسامح على اتصال المسيحين بالمسلمين ، وتعلم العرب التفكير الفلسفى باتصالهم برجال الدين الاغريق الذين اتقنوا فن المناقشة المنطقية (١٨٨) •

وتكشفت الروايات المبكرة التى تتناول اتصالات المسلمين والروم عن هذه **الروح الجدلية** ، ومهما كان حظ هذه الروايات من الثبوت فانها تعكس الروح السائدة • روى ان قيصر كتب الى معاوية : سلام عليك ، أما بعد فانبئنى بأحب كلمة الى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة ومن أكرم عباده اليه فأكرم امائه وعن أربعة أشياء فيهن الروح لهم يرتكض فى رحم وعن قبريسير بصاحبه ومكان فى الارض لم تصبه الشمس الا مرة واحدة والمجرة ما موضعها من السماء وقوس قزح وما بدء أمره ؟ فلما قرأ كتابه قال : اللهم العنه ما أدرى ما هذا !! فارسل الى عبد الله بن

---

(١٨٨) فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تاثرها بالمؤثرات الاجنبية ترجمة دكتور بدر ص ٦٤ : ٦٠ •

عباس يسأله فقال : أما احب كلمة الى الله فلا اله الا الله لا يقبل عملا الا بها وهى المنجية ، والثانية سبحان الله وهى صلاة الخلق والثالثة الحمد لله كلمة الشكر ، والرابعة الله أكبر فواتح الصلوات والركوع والسجود ، والخامسة لا حول ولا قوة الا بالله ، واما أكرم عباد الله اليه فهو آدم خلقه بيده وعلمه الاسماء كلها ، وأكرم امائه عليه مريم التى أحصنت فرجها . والأربعة التى فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم فآدم وحواء وعصا موسى والكبش . والموضع الذى لم تصبه الشمس الا مرة واحدة فالبحر حين انفلق لموسى وبنى اسرائيل والقبر الذى سار بصاحبه فبطن الحوت الذى كان فيه يونس . (١٨٩) .

كان المسلمون يدعون الى الاسلام فيقع الجدم بينهم وبين رؤساء النصرانية وكان ذلك أكثر ما يكون فى الشام ، وقد كان **يحيى أو يوحنا الدمشقى** نصرانيا شديد التمسك بنصرانيته وعمل هو وأبوه فى قصر عبد الملك بن مروان ، والف يحيى كتابا للنصارى لمحاجة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه : اذا قال لك العربى : ما تقول فى المسيح ؟ فقل له : انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصرانى المسلم بم سمى المسيح فى القرآن ، وليرفض ان يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم فانه سيضطر الى أن يقول « كلمة الله القاها الى مريم وروح منه » فان أجاب بذلك فأساله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح قال يحيى : فان قلت ذلك فيفحم العربى لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا الاعتراض بأن المراد بالكلمة انه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، وقد قال الله عند آدم « ثم قال له كن فيكون » « ونفخت فيه من روحى » . وفى الفرق الاسلامية نجد ظلا للمجادلات النصرانية ، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلا فى خلود العذاب ، وذهب اباء الكنيسة اليونانية الى انكار ابدية عذاب النار مخالفين فى ذلك الكنيسة الغربية ، واتخذت هذا الرأى نفسه فى الاسلام طائفة المرجئة . ورأى جهم بن صفوان ان الجنة والنار يفنيان ويفنى أهلهما . وقد كان أوريجين يؤيد القول بأن عذاب النار له نهاية وجميع الاسكندريين على اتفاق معه فى هذه النقطة ، وحتى معلمى كنيسة انطاكية : ديودور الطرسوسى

(١٨٩) ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

وتيودور المصيصي مثلا – يشاركون أوريجين عقيدته في هذه المسألة ولو أنهم عادة لايتفقون معه في المسائل الاخرى. ويذهب فوق كريمر الى ان آراء المعتزلة نشأت من مناقشات النصرانية لأن آباء الكنائس كانوا يتجادلون في حرية الارادة وان الانسان مجبور أو مختار كما كانوا يتجادلون في صفات الله ، وقد تسربت هذه العقائد الى المعتزلة عن طريق النصارى بعد فتح المسلمين للشام . ومن أشهر من احتك بالمسلمين في العصر الاموى يحيى الدمشقي سالف الذكر وتيودور أبو قره Abocara، وقد تكلم يحيى في أن الله مصدر الخير وقال ان الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس ،فتكلم المعتزلة الاولون في القدر وفي صفات الله وقد يكونون تأثروا بسوابق الجدل المسيحى في مثل هذه الموضوعات . ويذكر متز ان علم العقائد المسيحى كان لمدة طويلة في ذلك الوقت قد اهتم ببيان وحدة الذات وتنزهها عن الكثرة ، ولا يخلو كلام المعتزلة من تأثير الفلسفة اليونانية البالغ في القرن الثالث .

ولا يرى الاستاذ أحمد أمين هذا الرأى – ويشاركه الرأى الدكتور محمد البهى ، ويريان ان مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وانها فكرة ثارت في كل دين تقريبا ، ويدللون على ذلك بآيات القرآن وأحاديث الرسول التى تعرضت للقدر . (١٩٠)

ويوحنا الدمشقي ( ٦٧٥ : حوالى ٧٤٩م. ) الملقب بدفاق الذهب لفصاحة لسانه كان سوريا يؤلف باليونانية ، فضلا عن تكلمه الآرامية في حياته اليومية بالطبع واحسانه العربية » وهو من أبرز من تسرب على يدهم الأثر المسيحى والعلم اليونانى الى الجو الاسلامى » وكانت المناقشات بينه وبين علماء المسلمين حول حرية الارادة والقضاء والقدر بادرة الحركة العقلية في الاسلام ، وكانت تعاليمه ان الله خلق العالم وتركه يجرى بقوة استمراره . وقد تمتع سر جيوس والد يوحنا في بلاط عبد الملك بمنصب المستشار وبعد وفاته أسند المنصب الى ابنه ، على انه اعتزل هذا العمل في أوائل خلافة هشام ولجأ الى دير القديس سابا في جنوبى شرقي القدس يعيش حياة الزاهدين المتعبدين . وقد وضع القديس يوحنا عددا من

---

(١٩٠) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٤٣ : ٦ ، فون كريمر : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور بدر ص ٦٦ : ٧١
فازيلييف : العرب والروم – ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ، متز : الحضارة الاسلامية – ترجمة دكتور أبى ريدة ج ٢ ص ٢٨٣ ، دكتور محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى .

المؤلفات أهمها ينبوع الحكمة الذى لخص فيه آراء مشاهير المؤلفين الكنيسيين من قبله وقد اعتمده بطرس اللومباردى وتوما الاكوينى ونقل كثيرا من مؤلفات يوحنا الى اللاتينية ، واتفقت الكنيستان اليونانية واللاتينية على اعتباره قديسا • ومن أطرف كتاباته محاورتاه بين مسيحى ومسلم اللتان شدد فيهما على ألوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية • وكان من وجوه نشاطه البارزة دفاعه عن استخدام الصور للتعبد فى وقت كان ليو الايسورى الامبراطور البيزنطى يبذل الجهد البالغ لابطال الايقونات •

ولذلك تعرض لغضب الامبراطور ، وبلغ من جرأته ان قصد الى القسطنطينية معرضا حياته للخطر ، وقد نظم أناشيد دينية « وكان القديس يوحنا آخر اباء كنيسة الروم الشرقية وكان من حيث هو عالم لاهوتى ، وخطيب دينى ، ومدافع كنسى ومجادل عقائدى ، ومنظم للفن البيزنطى وللموسيقى البيزنطية من أبرز مفاخر الكنيسة فى ظل الخلافة » (١٩١) •

وقد كان هذا الجدال الدينى من ظواهر الفكر فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وكان الداعى لهذا الجدل أن الخلفاء كانوا اذا ما ارتقوا عرش الخلافة وجهوا الى الملوك المعاصرين كتبا يدعونهم فيها الى الدخول فى الاسلام فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب وحين ألف المسيحيون كتابا يدافعون عن عقائدهم ويهاجمون عقائد المسلمين ـ ومن ذلك كتاب يوحنا الدمشقى فى الهرطقات On Heresies حفز ذلك المسلمين للرد عليهم • **وكان من الضرورى حماية أهل الثغور من خطر التحول عن المسيحية وهو خطر كان يتزايد بتقدم العرب فى كل نواحى حياتهم تقدما محسوسا كل يوم** ، وان تعزز مناعة المسيحيين الخاضعين للمسلمين من الناحية المعنوية بعد أن ظلوا على ايمانهم وأصبحوا أهل ذمة • وكان كذلك من الضرورى ان تنشر الكتابات الدينية فى سوريا وفى مصر ، وقد جاءت هذه المؤلفات الجدلية المسيحية باليونانية لاستعمال تلك اللغة فى الشام فى زمن يوحنا الدمشقى أيام الامويين وفى زمن أبى قرة فى أوائل العهد العباسى ، ولكن الأخير بدأ استعمال العربية ، وكتب بها أبو كالبيس بحيرا الحوار بين عبد المسيح الكندى وبين عبد الله الهاشمى فى عهد المأمون ، والف برتلمى الرهاوى كتابات فى صورة رد على كتاب عالم مسلم لخصه فى المقدمة وقد عرض تصور المسيحية للاسلام فى أواخر القرن التاسع الميلادى • **وقد اقتبس العرب فى العراق وديار بكر وديار مضر والفرات**

---

(١٩١) حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ١١٥ : ٧ ، تاريخ العرب ـ ترجمة نافع ج ١ ص ٣٠٧ ـ ٨ •

**الأوسط والثغور طرائق الفلسفة في البحث الديني** ، وثار هجوم اسلامي قوى على أثر ما فعله ميشيل الثالث اذا أرسل مقالتين احتج في احداهما بمبدأ السببية ، فرفض المسلمون فكرة وجود ابن لله مشـــارك في الخلود والصفات • وظهرت رسالة للجاحظ مال فيها صاحبها الى تأييد سياسـة المتوكل الشـــديدة نحو أهل الذمة • وعرض أبو القاســم بن ابراهيم البلخي لفكرة النبوة ، والف أبو عيسى الوراق كتابا ضخما نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة • (١٩٢) •

وقد بلغت هذه المجادلات الدينية حدا كبيرا من العنف والتعصب في بعض الأحيان ، ومن ذلك ان الفقيه المسلم القفال الشـــاشي المتوفى سنة ٣٦٦/هـ ٩٧٦م راح يتبادل مع مجهول يتحدث باسم البيزنطيين ألوان الطعن والتجريح انتصارا لحملات ملكيهما الحربية سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦ ــ ٩٦٧م ، فيعلي المسيحي صيحته :

| | |
|---|---|
| ســافتح أرض الشرق طرا ومغربا | وانشر دين الصلب نشر المعـــالم |
| فعيسى علا فوق السموات عرشه | ففاز الذى والاه يوم التخـــاصم |
| وصاحبكم في القرب أودى به الثرى | فصـــــار رفاتا بين تلك الرمائم |

ويجيبه الشيخ المسلم من نفس الوزن والقافية :

| | |
|---|---|
| ومن رام فتح الشرق والغرب ناشرا | لدين صـــــليب فهو أخبث دائم |
| ومن دان للصلبان يبغى بها الهدى | فذاك حمـــــار وسمه في الخراطم |
| وان كان قد مات النبى محمـــــد | فاســـوة كل الأنبيـــاء الأعاظم |
| وعيسى له في المـوت وقت مؤجل | يموت له كالرسل من نسل آدم (١٩٣) |

ومع ذلك فقد كان هناك تماثل في الجو الخلقي السائد لدى المسلمين والبيزنطيين « ولا مراء ان العـــادات المرعية والمحظورات كـانت تختلف اختلافا بعيدا ، غير ان المعايير الخلقية كما تتجلى في وصايا الآباء وفي النصائح الموجهة لغير ذوي الخبرة من الناس وآراء القادة الروحيين كانت في الأغلب الأعم تلقى القبول بدرجة سواء على جانبي خط الحدود الفاصل بين العقيدتين • وكان كل من الطرفين في العصر الوســـيط مولعـا باستخلاص العظات الاخلاقية وكانوا في كل من المكانين ينتجون مجموعات

---

(١٩٢) ارمان بل : تحاج أهل الاديان في القرنين الثامن والتاسع ملحق لكتاب فازيلييف العرب والروم ــ ترجمة شعيرة ص ٣٦٨ : ٣٧١ •
جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة جاويد ص ٣٢ ، ٦٥ ــ ٦٦ ، ٤٢٧ •
(١٩٣) جرونيباوم : حضارة الاسلام ــ ترجمة جاويد ص ٣٤ ــ ٥ •

ضخمة من مؤلفات تتسم بطابع التهذيب والارشاد كما انه فى كل من القطرين كانت تقلبات القدر والتعقدات فى الطبيعة البشرية تلاقى الى حد ما رد الفعل نفسه غير الحاسم عند الأفراد (١٩٤) » ٠

* * *

وقد ظهرت نزعة فى المسيحية تدعو الى **نبذ الصـــور والايقونات** باعتبار أنها تحمل مسحة وثنية ، وقد استهلت بوادر مبكرة لهذه النزعة منذ القرن الرابع الميلادى وضجت انطاكية مستنكرة تقديس الايقونات فى القرن السادس الميلادى وكانت آسـيا الصـغرى مركز تلك النزعة **ولعل عداء الديانتين اليهودية والاسلامية فى تلك الجهات للصور والتماثيل له آثاره فى تلك النزعة كما يبدو فى اتهام انصار الصور ليو الثـالث الايسورى المتوفى ٧٤٠ م بانه عــربى التفكير** Saracen-minded **(١٩٥)** وزعم البعض أنه اعتنق الاسلام سرا على يد الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك مع ان عهده كان بداية فترة من فترات قوة الامبراطورية ٠ فى حين وجه المجمع اللا ايقونى سنة ٧٥٤م الى يوحنا الدمشقى تهمـة الميل الى الاسلام ! وقد سار خلفاء ليو الايسورى على سياسته فى محاربة الصـور حتى أوقفتها الامبراطورة ايرينى مؤقتا وبذلك استمرت هذه الحركة ٥٠ سنة تقريبا من ٧٢٦ الى سنة ٧٨٠م وكان الانتصار الثانى للصور على يد تيودورا سنة ٨٤٣ م وان كانت قد عادت الى الظهور بعض الوقت فى عهد ليو الأرمنى ( ٨١٣ : ٨٢٠ م ) ٠ ويذكر خدابخش « ان كلوديوس أسقف تورين ( المعين سنة ٨٢٨م ) الذى قام بطمس واحراق وازالة جميع التماثيل والصلبان فى اسقفيته ولد وتربى فى الأندلس الاســلامية ، ولاشك ان كلوديوس رأى فى الاسلام والمسلمين الشىء الكثير الذى نال تقديره واعجابه ، وتوجد لدينا عبارة صريحة لأحد معارضيه يقول فيها : ان اليهود امتدحوه واعتبروه اعقل رجل بين المسيحيين وهو من ناحيتـه امتدحهم وامتدح المسلمين كثيرا » (١٩٦) ٠

---

(١٩٤) جرونيباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ٣٩ ٠

(١٩٥) Runciman : Byz. Civ. p. 234, Byzantium. p. 16. بحث فازيلييف عن الاسلام وبيزنطة المستخرج من كتاب Byzantium. والملحق بترجمة دكتور مؤنس وزايد لكتاب بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٦ ٠

(١٩٦) خدابخش : مقدمة لترجمته الانجليزية لكتاب فون كريمر : الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ـ الترجمة العربية للدكتور بدر ص ٢٩ : تعليقات الدكتور بدر ص ١٦٦ ٠ ٠ ٠ بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ٦٠ ـ ١ ٠

ويرى المؤرخ اليوناني المعاصر باباريجوبولو Paparigopoulo ان محاربى الصور كانوا دعاة اصلاح سياسى اجتماعي ويريدون تحرير التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس . ويرى المؤرخ الفرنسي لومبار Lombard انهم كانوا مصلحين دينيين نظروا الى الصور نظرتهم الى عبادة الاصنام وأشار لويس برييه Brehier الى أن موضوع الايقونات يثير البحث في محاولة تصوير ماهو الهى فى صورة بشرية وتصوير أسرار الروح تصويرا ماديا ، ولكن **فازيلييف يرى تشابها بين الحركة** اللا ايقونية الرومية وبين الميل لتغليب العقل فى الاسلام فى القرنين **الثامن والتاسع الميلادى ويرى اوسبنسكي** Ospensky ان الدافع الأول لحرب الأيقونات هو خوف الامبراطورية من تزايد ثراء الرهبان ونفوذهم . وقد شعر صناع الصور المجيدون فى أفسوس ـ ان الخطر يهدد رزقهم وكان الدفاع الحار عن الصور المقدسة أنها انجيل الجاهل وهى تذكر بالله وان من الطبيعى ان يتجه العقل الانسانى الى التماس المعاونة من قوى وراء الصور المتجسدة وان المسيح قد قدس المادة حين استحال الى جسد بشرى . غير ان معركة اللاصورية اكتسبت فى مرحلتها التالية طابعا سياسيا « ولم يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور يذودون عن تقليد كنسى فحسب بل كانوا يكافحون عن حرية جديدة ويجاهدون فى سبيل تحطيم العلاقة بين الكنيسة والدولة ـ تلك العلاقة التى توطدت منذ زمن طويل فى العالم البيزنطى لأن امبراطور روما الشرقية لم يكن حامى الدين فحسب بل كان رئيس الكنيسة وكان فى مقدوره وحده ان يدعو المجمع الكنسى ـ برلمان الامبراطور الدينى » . وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هى التى هاجمها تيودور أحد أنصار الصور المتأخرين ، ويوضح القديس يوحنا الدمشقي وجهة نظر هؤلاء الرهبان فى قوله « نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية ـ أى فى الولاء والضريبة وما يحق له علينا من الجبايات . أما فى الحكومة الكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحو القوانين الكنسية . فالتقدم السياسى من اختصاص الامبراطور أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين ، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية » . واذ كانت مصر والشام والعراق قد انفصلت عن جسد الدولة البيزنطية ولم يبق فيها الا الولايات الارثوذكسية فانه لم يعد هناك مجالا لأن يتدخل الأباطرة تدخلا مستمرا عنيفا كما كان الحال فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين حين كان فى الدولة ارثذوكسيون وغيرهم . وقد نهض النزاع حول الصور بالتفكير

اللاهوتى البيزنطى حتى يقول بينز « ان الكنيسة الارثوذكسية خرجت من نزاع اللا ايقونية ارثذوكسية أكثر من أى يوم مضى » ٠

ومع أن الخليفة الأموى يزيد عبد الملك ( ١٠١ : ١٠٥ هـ ) ( ٧٢٠ : ٧٢٤ م )المعاصر للامبراطور البيزنطى ليو الثالث ( ٧١٧ / ٧٤١ م ) كان قد أصدر منشورا قبل ليو الثالث بثلاث سنين كما تؤكد المصادر الموثوق بها يأمر بكسر الصلبان ومحو الصور والتماثيل فى الكنائس الا أن يوحنا الدمشقى الذى كان يعيش فى ظل الخلافة الاسلامية واصل دفاعه المتحمس عن الايقونات دون أى ازعاج ٠ ومن بين كتاباته المتعددة نجد ٣ مقالات عنوانها : « الرد على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة » كتبها فى ظل الخـــلافة وأصـــبحت أمضى ســـلاح للمدافعين عن الايقونات من البيزنطيين (١٩٧) ٠

ويحكى تيوفانيس أن يهـــوديا عرافا من اللاذقية قال ليزيد بن عبد الملك أن خلافته ستمتد أربعين عاما ان هو كسر الصور التى فى الكنائس النصرانية بمملكته ويقول تيوفانيس ان هذا كان سببا فى اصدار يزيد أمره بذلك ولكن هذا الأمر لم ينفذ بسبب موت يزيد بعد ذلك بقليل بل لم يبلغ الأمر سوى فى أضيق نطاق ولكن ليو كان على هذا الرأى ( الشنيع المخالف للدين ) وقد أعانه على ذلك نصرانى اسمه بشر على أسماء العرب وكان وهو أسير حرب فى الشام قد اعتنق الاسلام ثم ارتد بعد اطلاقه وقد بقيت فى نفسه آثار منه ٠

ويشك فلهوزن فى صدور هذا الأمر من الخليفة اذ لم يعرفه الا الأقل من الناس اما مجرد نبوة يهودى للخليفة بامتداد حكمه أربعين سنة فنجدها عند الطبرى أيضا ولكن النبوءة لم تتحقق ولم يحكم يزيد سوى أربع سنوات (١٩٨) ٠ وقد ذكر المقريزى فى الخطط وساويرس فى سير البطاركة نبأ تنفيذ أوامر يزيد فى مصر « ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه » أما مسلمة بن عبد الملك والى العراق وخراسان فقد أمر بمحو الصور جميعها سواء

---

(١٩٧) بينز : الامبراطورية البيزنطية ترجمة دكتور مؤنس وزايد ص ١١٤/١١٩ ، هامش المترجمين ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، ملحق بالكتاب : الاسلام وبيزنطة لفازيلييف من كتاب Byzantium ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٠١ ٠
دكتور رستم : الروم جـ ١ ص ٣٠١ : ٤ ، فازيلييف العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ ، ٢٨ ـ ٩ ، ٣٧ ـ ٨ ٠

(١٩٨) فلهوزن : تاريخ الدولة ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٣١٤ ٠

ما كان فيها فى الكنائس أو على الجدران أو فى البيوت والكتب ، كما قام بتحطيم جميع الأصنام والتماثيل سواء أكانت من الحجر أم العاج كما جاء فى Anonymous Syriac Chronicle (١٩٩) ويميل المطران الدبس الى تأييد اتباع يزيد لرأى يهودى بل ويرى ان اليهود أيضا هم الذين أثاروا ليو الايسورى ضد الصور ويقول « أثار الوثنيون واليهود والمانويون وبعض أولى البدع قديما حربا على الصور على ماجاء فى أعمال المجمع السابع المسكوني فى المجلسين الأول والخامس على أن من تسبب فى محاربتها فى هذا القرن انما هو رئيس يهودى اسمه سارانتابك ٠ مضى الى يزيد الخليفة — ابن عبد الملك ، فأغراه بأن يصدر أمرا ينهى به المسيحيين عن تكريم الصور فى معابدهم لأن استعمال الصور محظور بسنة المسلمين ، فانقاد الخليفة لاغرائه واصدر أمرا ينهى به عن ذلك فقلق النصارى ، **ولما كان هؤلاء الخلفاء قد اعتادوا ترك النصارى وما يدينون لم يتشبث يزيد بتنفيذ أمره بل أغضى عنه فكان أعلم وأعدل من بعض المسيحيين ولاسيما الملكين لاون الايسورى وابنه قسطنطين الزبلى** ، اللذين أثاروا حربا عوانا على الصور ومن يكرمها حتى زادا كثيرين فى عذاب الشهداء ٠ فان الملك لاون كان قد وعد اليهود بأنه سيصنع كل مايسألونه ليعاونوه على ترقيته الى منصة الملك فبعد أن استوى عليها زينوا له ان تكريم الصور ضرب من عبادة الأوثان وقد نهت عنه الاسفار المقدسة فى العهد القديم فانحاز الى رأيهم ٠٠ وبلغت الاخبار ايطاليا فألقوا الى الارض صور الملك ووطئوها فاحتدم غيظا وكتب الى رومة أمرا بانتزاع الصور من الكنائس ومهددا البابا غريغوريوس الثانى بالعزل والنفى أن مانع من تنفيذ أمره فكتب الحبر الرومانى رسالة عامة الى جميع المؤمنين يحذرهم بها من هذا الضلال ومن مطاوعة الملك عليه وعزم سكان ايطاليا أن يقيموا ملكا ويحملوه الى قسطنطينة فيثلوا عرش لاون ويملكونه مكانه ٠٠ وخلف لاون قسطنطين ابنه ٠٠ وأراد قسطنطين أن يبرىء أعماله بسلطة الكنيسة فجمع كثيرين من الأساقفة سنة ٧٥٤ م فى قسطنطينية وعقدوا فيها مجمعا لم يكن فيه نائب عن الحبر الرومانى ولا نواب عن بطاركة اسكندرية وأنطاكية وأورشليم وكان كرسى قسطنطين فارغا قضوا فيه بدسائس الملك وتهديداته وسر بعض الاساقفة بأنه لا يجوز تكريم صور القديسين والالتجاء الى شفاعتهم لأن ذلك يحسب عبادة صنمية ٠٠ ان الدين المسيحى والذوق السليم يرشداننا الى أن

---

(١٩٩) ترتون : اهل الذمة في الاسلام ترجمة دكتور حبشي ص ١١١ ٠

العبادة السامية لا تحق الا لله خالق السماء والارض وما فيهما على أنها يرشداننا أيضا الى أنه يسوغ لنا أن نكرم بعد الله ولاجل الله بعض مخلوقاته التى أبدى بها قداسة وجوده وقدرته كالملائكة والقديسين الفائزين بسعادته ، بل يقضي علينا الدين والعقل أن نكرم والدينا والمحسنين الينا وملوكنا فى الارض أيضا وان فى جملة صنوف هذا التكريم أن نصور صورتهم ونكرمها اكراما يعود اليهم طبعا لا الى النسيج او الورق المصورة عليه الصورة فكيف لا يسوغ اذن للمسيحى أن يكرم صورة المسيح أو العذراء والدته أو القديسين أصفيائه .. ؟ وندر بين أهل الحضارة من يعتقد أن الصورة هى المصور بها نفسه وان وجد بين أهل الهمجية من هو كذلك لزم ارشاده الى ما هو معقول لا النهى المطلق عن تكريم الصور الذى لا تنكر منفعته بايقاظ عواطف العبادة وذكر فضائل المصور ، ولم ينه الله بوصاياه عن اتخاذ صورة أو تمثال الا لنبذ عبادة الوثنيين التى كانوا يعتقدون بها أن فى أصنامهم قوة بنفسها (٢٠٠) .

ويرى فازيلييف أن التشابه بين الحركة الايقونية والحركة العقلية فى الاسلام فى القرنين الثامن والتاسع واضح جلى وعلى ذلك « فان دراسة هاتين الحركتين من ناحية أثر أحدهما على الأخرى قد يؤدى الى نتائج عظيمة الأهمية لتاريخ الامبراطوريتين الثقافى » (٢٠١) وقد كان من نتائج نزعة تغليب العقل فى الاسلام القول بخلق القرآن وحين اعتنق بعض خلفاء بنى العباس هذا الرأى كانت احدى البعثات التى توجه الى مناطق الثغور لفداء الأسرى تشترط اقرار الأسير بخلق القرآن لافتدائه .

(٢٠٠) الدبس : تاريخ سوريا ج ٥ ص ٢٧٨ : ٢٨٣ .

(٢٠١) فازيلييف : العرب والروم ـ ترجمة دكتور شعيرة ص ١٣ .

# رابعا : المجتمع فى الثغور

انتقلت القبائل العربية الى أطراف الجزيرة من قبل الاسلام فالمسعودى يحدثنا أن المسلمين من طىء تفرقوا فى الحروب بين الغوث بن طىء وجديلة بن سعد ، **فلحقوا بحاضر قنسرين من أعمال حلب وخالطوا الانباط** وغيرهم وتزوجوا فيهم • وقد عدد ابن العديم من نزل من العرب حلب : من بنى كلاب ، وبنى نمير ، والنمر بن قاسط ، وقضاعة ، وكلب ، وسليم • وابن حوقل يقول فى خلال حديثه عن الجزيرة : وقد **سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر والجزيرة حتى صارت لهم بها ديار ومراع فنزلوا على خفارة فارس والروم** حتى ان بعضهم تنصر ودان بدين النصرانية مع الروم مثل تغلب بن ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام • وهكذا كانت تطرق الشام والجزيرة قبل الفتح الاسلامى مجموعات عربية متباينة « وكانت تمارس فيها حياتها الجديدة وتتآلف معها وتتأثر بها وتؤثر فيها وتكون فى هذا التأثر والتأثير صلة مابين الجزيرة وخارجها وما بين الجنس العربى والاجناس الأخرى » (٢٠٢) •

وجاءت الفتوح الاسلامية فلم يكن خروج العرب من جزيرتهم قبلى الصورة بل كان الخليفة يبعث مستنفرا للجهاد فتتوافد عليه الجموع فيصرفها فى الوجهة التى يراها وان كان يحدث أحيانا أن تكون كثرة من المحاربين من قبيلة من القبائل • وكانت أعمال الجيوش تقتضى بطبيعتها تعاونا جماعيا لا يعتمد على روح القبيلة الفردى ، ثم **انتهى الاختلاط فى الجيوش الى الاختلاط فى المدن بعد الاستقرار** • وقراءة أسماء القبائل

---

(٢٠٢) دكتور شكرى فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٢٧ ـ ٨ ، ابن العديم : بغية الطلب ـ مخطوط ص ٥١١ وما بعدها الى ٥٥١ •

والجماعات التى نزلت الكوفة مثلا تنبىء عن اشتراك قبائل من الشمال والجنوب ، من ربيعه ومضر ، من الحجاز ونجد ـ فى سكنى مدينة واحدة ٠ وان كثيرا من الحوادث التى تتصل بالحياة السياسية والمالية للمجتمع الاسلامى فى الفتوح والعطاء لتقوم مابين أهل البصرة وأهل الكوفة ومابين أهل الشام وأهل العراق ٠ والى جانب **تميز الجماعات بالمدن التى تسكنها كانت بعض الجماعات تتميز بالوقائع** التى خاضتها « ويبدو كأنما كان لكل معركة كبرى فى الفتوح فى الشام والعراق طبقة تفردت بلون خاص من الامتياز المادى أو الأدبى » وذلك بجانب التقسيم الأشهر الى صحابة وتابعين ونحن نقرأ للطبرى مثلا « كان أبو بكر لا يستعين فى حربه بأحد من أهل الردة حتى مات وكان عمر قد استعان بهم فكان لا يؤمر منهم أحدا الا على النفر وما دون ذلك وكان لا يعدل ان يؤمر الصحابة اذا وجد من يجزىء عنه فى حربه ، فان لم يجد ففى التابعين باحسان وكان لا يطمع من انبعث فى الردة من الرئاسة » ويقول الدكتور شكرى فيصل « هنالك قيمتان كبريان سادتا المجتمع الاسلامى وأرستا قواعده : قيمة معنوية تتمثل فى صحبة الرسول بكل ماوراء هذه القيمة من استمساك بالمثل الاسلامية الأولى الصحيحة وقيمة مادية تتمثل فى العطاء ـ بكل ماوراء هذا العطاء من فهم لأساليب الحكم وأنماط السياسة وطريقة السير بالدولة الاسلامية » وهو يقول عن العطاء « كان العطاء أول الأمر سبيلا لتقدير العمل وكان لا يناله الا الذين يستحقونه فى حدود ما أمر الله ٠ فلما انحرفت بالحياة الاسلامية الطريق حين استقرت فى مهاجرها الجديدة أصبح العطاء ثمنا للفراغ والدعة وطريقا للترف ولم يعد حقا من حقوق الجماعة وانما فسر على أنه حق من حقوق الخليفة يزيده وينقصه كيف يشاء ويصل به ويمنعه عمن يشاء » (٢٠٣) ٠

**واذا كان الاسلام قد أعان على ادماج العرب فيما بينهم فانه بدوره لم يعزلهم عن سكان البلاد المفتوحة** وأهاليها الأصليين ٠٠ فقد أمنهم المسلمون على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وشعائرهم « وفى هذه السياسة التى صار عليها المسلمون وفى هذه العهود التى كتبوها كانوا يضعون أسسا لمجتمع جديد ٠٠ لم يكن مجتمعا ضيقا ولا منطويا وليست له الانعزالية التى يحرص عليها المستعمرون ٠٠٠ كان مجتمعا طلقا حرا يسع الناس جميعا من كل أمة ويؤوى اليه الناس جميعا من كل ملة يبيح المشاركة فيه لمن شاء هذه المشاركة ويتيح الخروج عنه لمن أراد

---

(٢٠٣) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٣٥ : ٧ ، ٤٤ : ٧ ، ٣٥٢ .

الخروج ـ يشارك آمنا ويخرج آمنا » ٠ وفى هذا الجو الطلق الصافى **استيقظت القرابة القديمة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة** « وقد أحست القبائل سواء منها النازلة فى العراق أو فى الشام حاجتها الى أن تعتد بهذه القرابة ومكنت لها وحدة اللغة من هذا الاعتداد ٠ والتفتت فوجدت أن الأصداء التى كانت تنبعث من مراكز الحكم يونانية والأصداء التى كانت تنبعث من مراكز الحكم والتى كانت تستجيب لها آرامية ـ أضحت عربية مبينة صوتا ومقالا ٠٠٠ حارب عرب الضاحية عرب الجزيرة فلما رأوا أن ذلك لن يجديهم اقتربوا منهم ثم تضامنوا معهم ثم شاركوهم مثلهم وفكرتهم وتكونت منهم جميعا هذه الكتلة الكبرى فى جسم الدولة حتى لكان هذه القرابة هى الجرثومة التى نبت عنها تعريب الشام ٠٠٠ والدور الذى لعبته اللغة المشتركة بين عرب الضاحية وعرب الجزيرة أبعد مدى وأشد ايغالا من الدور الذى لعبته القرابة ٠٠٠ ولم يكن هناك الا الروم وحدهم لا يتمثلون هذه اللغة وكانوا بالقياس الى العرب والآراميين قلة حاكمة وكان المسلمون فى شروط الصلح نفوهم عن البلاد وآمنوهم على الخروج منها وسمحوا لمن شاء أن يبقى منهم ٠٠٠ أما اللغة اليونانية فلم تستطع البقاء ولم يمكن لها من قبل الفتح اذ لم تعد ان كانت لغة الدواوين أو لغة المترفين ( المتهلينين ) » (٢٠٤) ٠

وقد كان المسلمون حريصين على استمالة العرب فى الشام والجزيرة « وانحاز جبلة بن الايهم الى الانصار فقال : أنتم اخوتنا وبنوا أبينا وأظهر الاسلام ٠ فلما قدم عمر بن الخطاب الشام سنة ١٧ هـ لاحى جبلة رجلا من مزينة فلطم عينه فأمره عمر بالاقتصاص منه فقال : أو عينه مثل عينى ـ والله لا أقيم ببلد على به سلطان فدخل بلاد الروم مرتدا وكان جبلة ملك غسان بعد الحارث بن أبى شمر ٠ وروى أيضا ان جبلة أتى عمر وهو على نصرانيته فعرض عمر عليه الاسلام وأداء الصدقة فأبى ذلك وقال : أقيم على دينى وأؤدى الصدقة فقال عمر : ان أقمت على دينك فأد الجزية فأنف منها فقال عمر : ماعندنا لك الا واحدة من ثلاث : اما الاسلام واما أداء الجزية واما الذهاب حيث شئت فدخل بلاد الروم فى ثلاثين الفا ٠ فلما بلغ ذلك عمر ندم وعاتبه عبادة بن الصامت فقال : لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم ٠ وان عمر وجه سنة ٢١ هـ عمير بن سعد الأنصارى الى بلاد الروم فى جيش عظيم وولاه الصائفة ـ وهى أول صائفة كانت ـ وأمره أن يتلطف لجبلة بن الايهم ويستعطفه بالقرابة

---

(٢٠٤) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٦٤ : ٧٠ ٠

بينهما ويدعوه الى الرجوع الى بلاد الاسلام على أن يؤدى ماكان بذل من الصدقة ويقيم على دينه فسار عمير حتى دخل بلاد الروم وعرض على جبلة ما أمره عمر بعرضه فأبى الا المقام فى بلاد الروم » ٠

كذلك أراد عمر أن يأخذ الجزية من نصارى تغلب « فانطلقوا هاربين ٠٠ فقال النعمان بن زرعة أو زرعه بن النعمان : أنشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم فلا يغن عدوك عليك بهم ٠ فأرسل عمر فى طلبهم وأضعف عليهم الصدقة » (٢٠٥) ٠

وقد كانت المقاومة التى لقيتها اللغة العربية فى بلاد الامبراطورية الساسانية ـ باستثناء العراق العربى ـ أشد عمقا من المقاومة فى بلاد الامبراطورية البيزنطية فقد كانت اللغة الفارسية هى لغة الحكومة والشعب أما فى الشام فقد كانت اليونانية لغة الحكم والسريانية والآرامية والعربية السنة الشعب ٠

وقد كانت القبائل العربية تنزل فى ديار الجزيرة بشمالى العراق منذ الجاهلية ، أما غير العرب فقد أخذ تيار التعريب الاجتماعى واللغوى يشق مسالكه فيهم وكان للاسلام آثاره الكبرى كما فعلت الحياة المنزلية فعلها فى تعريب الفارسيات من حرائر واماء وتعريب أطفالهن ٠ وبرزت مع استقرار العرب فى العراق ظاهرة بناء المدن وتمصير الامصار « وكان هذا تجسيما لكل حاجات المجتمع الجديد : كان تجسيما لحاجاته النفسية التى كانت رغبة عن القبيلة واستشرافا للوحدة ونزوعا الى حياة هى أسمى من الحياة التى كانت فى الجزيرة وكان تجسيما لحاجاته الحياتية التى كانت تحتم على هذه الجماعة أن تجد المنزل الذى تتأقلم فيه والذى تتخذ فيه الاعراف بين البيئة التى خلفتها وراءها والبيئة التى تستقبلها من أمامها وكان الى ذلك تجسيما لحاجاته السياسية والحربية فى التمركز بعد الانسياح وتثبيت الاقدام بعد أن بعدت الاماد وامتدت المسافات ومحاولة الارتكاز الى هذه المواطن قبل أن يتبين الوثبة الجديدة ٠٠٠ وكان كذلك استجابة لدواعى البيئة فى العراق وما فرضته على هؤلاء المهاجرين من ألوان وأساليب ٠ فمن الواضح أن هذا السواد الواسع لم يكن الا سهولا متصلة متلاحقة لا مدن فيها ، لم يكن كما كانت الشام تتعاقب فيه الارض والمدن ولم يكن كذلك كماكانت فارس ، وانما كان أرضا

---

(٢٠٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٢ ـ ٣ ، ١٨٩ ٠

متسعة ممهدة تتعاقب فيها السهول وتجرى فيها الأنهر والقنوات وينتشر المزارعون فلا تتميز الارض الا ببعض القرى ، ولا تكون هذه القرى الا ضرورة لا مناص منها للادارة أو للاشراف ۰ فلما جاء العرب مهاجرين فرض عليهم هذا السواد نفسه ـ مادام من رغباتهم أن يقيموا فيه دولة وينشئوا حكما ـ أن يمصروا فيه البصرة والكوفة أولا وواسط ثانيا ثم بغداد وسامرا بعد ذلك وأن يجعلوا من هذه المدن معالم حياته الجديدة (٢٠٦) ۰

وقد مصرت الموصل وخططت فى عهد عمر سنة ٢٠ هـ وسميت كذلك لأنها تقع بين العراق والجزيرة وتصل بين الجزيرة والشام وبين الفرات ودجلة ، ثم ازداد عمرانها فى ولاية محمد بن مروان ولما وليها سعيد بن عبد الملك حفر بها نهر سعيد كما بنى سورها وأعاد فرشها بالحجارة ۰ وفى عهد هشام أسس واليه الحر مدرسة ومقرا منيفا تفنن فى بنائه وزخرفته وحلى سقوفه بماء الذهب كما شق جدولا عذبا وغرس الاشجار على جانبى الطرق ۰

وكان يسكن الموصل كثير من قبائل العرب من أبناء ربيعة ومضر ، وقد نقل محمد بن مروان فى خلافة أخيه عبد الملك الأزد وربيعة من البصرة الى الموصل (٢٠٧) ۰

**وسكن العرب المدن الحربية التى وجدوها فى الشام وشرعوا ينشئون الأمصار فى غير الشام** ، «ولم يكن يستطيع المرء أن يتمتع بما للمواطن من حقوق كاملة الا فى الجيش وفى المدن ومعسكرات الجيش الكبرى » ـ على حد تعبير فلهوزن ، « وكان سجل المواطنين المشتمل على أسمائهم هو سجل ديوان الجيش وكانت القبائل والعشائر هى التى تؤلف فصائل الجيش وكتائبه » ۰ وقد كان المجتمع الاسلامى يختلف فى الشام عنه فى العراق « وذلك انه لم يكن للكوفة والبصرة تراث غير تراث حياة البادية وغير تراث الاسلام وكانت حروب الفتح قد قذفت اليهما بجيوش عربية تتألف من مختلف القبائل فأقامت هناك أشبه شىء بالمستعمرات العسكرية ووجدت هذه القبائل نفسها قد انتقلت دفعة واحدة من ظروف حياة البادية الى ظروف الحضارة وصارت فى النقطة الوسطى لامبراطورية كبرى فلا عجب ألا يتحول العرب دفعة واحدة من حياة البداوة الى حياة المواطنين المهذبين ۰على انه قد هاجر الى الشام أيضا على أثر الفتح الاسلامى

---

(٢٠٦) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٠٥ : ١١٣ ۰

(٢٠٧) دكتور الخربوطلى : تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ۰

كثير من العرب ـ خصوصا من قيس الذين انتقلوا الى شمال الشام ولكن الغالبية في الوسط كانت لكلب ولقبائل قضاعة الى جانب قبائل اخرى من ازاد الصراة. وكانت هذه القبائل قد توطنت هناك منذ قرون ولم تكن قد جاءت مع مجيء الاسلام وكانوا معرضين لتأثير الحضارة اليونانية الرومانية والكنيسة المسيحية والدولة الرومانية ـ فلم تخل هذه العوامل كلها من أن تترك أثرها فيهم ولم تكن مظاهر الدولة المنظمة ولا روح الطاعة الحربية والسياسية معانى جديدة عليهم ... ولم يكن من الممكن أن يصبح عرب الشام الذين ادمجوا فى الدولة العربية بعد الفتح فى المرتبة الثانية بعد العرب الذين دخلوها فاتحين ذلك أن دخول عرب الشام فىالاسلام جاء مبكرا وكان لهم فيه نصـيب من الاختيار وان كان اسـلامهم قد كان مجرد انضمام لراية العروبة المنتصرة ... ولم يكن المسلمون فى الشام يعيشون بمعزل وفى مستعمرات مخصصة لهم بل كانوا يعيشون بين أبناء البلاد فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها بل كانوا أحيانا يقاسمونهم بيتا لله ـ نصفه مسجد ونصفه كنيسة » (٢٠٨) .

وقد روى أن الحجاج سأل زادان فروخ عن العرب فى الامصار فأخذ يصف أهل كل مصر وخصائصهم فقال عن أهل الشام فلم يغفل تأثير الروم فيهم « نزلوا بحضرة أهل الروم فأخـذوا من ترفقهم وصـناعتهم وشجاعتهم » (٢٠٩) .

ولم يكن فى وسع العرب مهما يكن الأمر يتناسوا تماما روح القبيلة ، فقد أقاموا فى مدن الشـام مثل حمص وحلب فى أحيـاء مختلفة تبعا لرابطتهم القبلية (٢١٠) ـ ونقرأ فى أخبار الفتوح أن السمط بن الاسود الكندى « **قسم حمص خططا بين المسلمين حتى نزلوها ، وأسكنهم فى كل مروض جلا أهله أو سـاحة متروكة** (٢١١) . وهـكذا انتقل العرب بمشاعرهم القبلية من بادية الجزيرة الى المدن والامصار » ولم يشأ الله أن يخالف العرب عن الفطرة بالطفرة ، ولذلك أخذوا بهذه الخطوة المزدوجة **خرجوا من قبلية الصحراء الى قبلية المدينة** ـ أعنى أنهم حققوا قدرا من التطور يتمثل فى محو ماكان من آماد بعيدة أو قريبة بين قبائل البادية

---

(٢٠٨) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة ص ٢٤ـ٥ ، ١٢٦ : ٨.

(٢٠٩) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨ .

(٢١٠) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ دكتور فروخ العرب والاسلام فى حوض البحر المتوسط ص ١٤٨ .

(٢١١) البلاذرى فتوح البلدان ص ١٣٧ .

تحول بينها وبين أن تأتلف أو تتقارب ٠٠٠ لأن حيـــاة المدينة نفسها ستفرض عليهم ألوانا من النظم ، وستضطرهم الى اشكال من العلائق ، وستدفعهم الى نماذج كثيرة من الصـــلات والترابط ٠٠٠ وكان يزداد الشعور بالمدينة نموا وأصالة بالقدر الذى ينتقص من شعور القبيلة ذبولا وتخلخلا وكثيرا ماكان يحدث أن تجتمع المدينة كلها ـ أعنى كل القبائل النازلة فيها ـ على شيء تطلبه يخالف ماتطلبه المدينة الأخرى ٠٠ » (٢١٢) على أن هذا لا يمنع من حدوث انتكاسات الى العصبية القبيلية أحيانا خاصة فى العهد الأموى ٠

ويتهم ديمومبين الخلفاء بأنهم تسببوا فى احياء الروح القبلية لأنهم كانوا يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ، فكان الخليفة يؤكد ويؤيد وضـــع رئيس القبيلة ويزوده بســـلطة عســكرية وادارية ومالية ٠

**وكان هناك عداء مستحكم بين اليمنية والمضرية ، كما اشـتد الخلاف بين قيس وتغلب ، وكانت قيس تنزل قبل الاسلام فى نجد وبوادى الحجاز وتمتد بطونها وعشائرها حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، أما تغلب فكانت تنزل فى الموصل وكانت بطونها وعشائرها تقيم فى المنطقة الممتدة من الحيرة الى شواطىء الفرات والى بادية الشـــام ٠ فلما ظهر الاسلام خرجت قبائل قيس للاشتراك فى حركة الفتوح ، ونزل جزء كبير منها فى الشام وسكنوا بوجه خاص فى شمالى الشام والجزيرة على جانبى الفرات وفى قنسرين وقرقيسيا وحران ، وامتدت بعض فروعها الى منازل تغلب فى الموصل وحوض الفرات ٠ وهكذا كان بين قيس وتغلب تزاحم فى المنازل وتضارب على المعيشة والمكان ٠** وقد حنقت قيس على نفوذ كلب أصهار معادية ، ومن هنا وثبت على سعيد بن مالك بن بحدل الكلابى حين تولى قنسرين ، وساندت ابن الزبير بعد وفاة يزيد « وهكذا امتزج الخصام القبلى بالسياسة العليا ، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هى بالاجمال الاحزاب السياسية التى كانت فى أصلها ـ مستقلة عن القبائل ـ » كما يقول فلهوزن ، واستمر الصراع القبلى فى الشام حتى أيام العباسيين ،وعانى الرشيد من ذلك حتى اضطر أن يعقد لجعفر بن يحيى على القيام باخماد الفتنة (٢١٣) ٠

---

(٢١٢) دكتور فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٠٢ ، ١٠٥ ٠

(٢١٣) دكتور الخربوطلى : تاريخ العـراق في ظل الحـكم الاموى ص ٢٤٣ ـ ٤ ، ٣٥٠ ٠ فلهوزن : تاريخ الدولة الاموية ـ ترجمة أبى ريدة ص ١٦٧ ، ١٧٧ ، الطبرى حـ ١٠ ص ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٦ ـ ٧ ٠

وقد كان العرب والبدو الذين رغبوا فى الزراعة قليلين ومن هنا غلب عليهم التجمع فى المدن وتحاشى العرب جبال لبنان فلم ينزحوا اليه الا فى القرن التاسع الميلادى وبقى معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من اصل فينيقى وظلوا يعتنقون المسيحية ويتكلمون السريانية فان الأماكن الاخرى – خاصة المناطق الجبلية – قد حافظت على مظاهرها الاقليمية وأبقت على طابعها الحضارى المحلى ٠ على أن بعض العرب قد تسللوا الى الريف وأنشأوا القرى « وقد تم نشوء هذه القرى على مراحل انتقالية واضحة من استيطان مؤقت الى حياة بدوية زراعية ذات حظ من الاستقرار ، فالى حياة ريفية مستقرة ٠ ونشأت معظم هذه القرى حول منابع المياه ، واعتبر فى اختيار مواقعها سهولة الدفاع وخصب التربة ٠٠٠ ، ولكن ظلت مناقب الحياة البدوية هى البارزة ٠ وقد أخذت العربية تغدو لغة المدن ، وأدى تردد أبناء الريف الى المدن لبيع منتجاتهم أو مزاولة أعمالهم الى **محاولتهم تعلم اللغة الجديدة** ٠

وكذلك حاول تعلم اللغة كل من يتأهب للعمل فى احدى وظائف الدولة ، كما أخذ القوم فى **اعتناق الاسلام أيضا** واعتنق خمسة آلاف من نصارى بنى تنوخ بجوار حلب الاسلام أيام المهدى العباسى ، وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان فى مطلع القرن التاسع الميلادى من الأسر العربية الاسلامية الأولى التى استوطنت الجبل ، وقد اقتطعوا لأنفسهم فى منطقة قليلة السكان مقاطعة حكموا فيها قرونا عدة ، ويرى الدكتور حتى أن **العباسيين قد اقاموا من التنوخيين « حاجزا دون الموارنة فى شمالى لبنان ، وسدا فى وجه الروم المقبلين من البحر** » وما أن استهل القرن ١٣ م وآذن العصر العباسى بالزوال حتى **انتصرت العربية تماما وغلبت كأداة للتفاهم فى الحياة اليومية « انما بقيت هنالك ( جزر لغوية ) لأقوام غير مسلمين : مثل اليعاقبة والنساطرة والموارنة** وقد كان فى عهد الصليبيين كثير من مثل هذه الجزر ، وفى لبنان المارونى دافعت اللغة السريانية حتى القرن السابع عشر ٠٠ واذ اخذ غير العرب فى الاستعراب واعتناق الاسلام عمدوا الى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موال وذابوا فيها تباعا ، ثم أخذ الفاصل بين العرب وغير العرب وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين فى الاضمحلال وسرعان ماغدا الجميع عربا بلا تمييز ٠٠ وقد انقرض السواد الأعظم من أولئك الذين تكلموا السريانية فى سوريا والعراق وكانوا يسمون بالأنباط » (٢١٣) ٠

---

(٢١٤) دكتور حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٩٤ : ٧ ، ص ١٧٠ : ٢ تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ١ ص ٢٨٦ ـ ٧ ، ٤٥٦ ـ ٧ ٠

وقد سار المسلمون أول الأمر على **سياسة تخريب معاقل الحدود الشمالية التى تحجزهم عن الروم ، فلما رسخت أقدامهم واستقرت دولتهم عمدوا إلى ابتناء المدن والتحصينات فى مواقع الثغور والمعسكرات وشحنها بالجند** .

وقد كان الاعتماد أول الأمر على **العرب المقيمين والقادمين** فى تعمير المراكز الهامة فى البلاد المفتوحة « قالوا : ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة ، وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوما لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادى من قيس ، وأسكن قاصرين قوما ثم رفضوها أو اعقابهم » « ثم لما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم فى اعتمال الارضين التى لاحق فيها لأحد ، فأنزل بنى تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر أخلاطا من قيس وأسد وغيرهم ، وفعل ذلك فى جميع نواحى ديار مضر ورتب ربيعة فى ديارها على ذلك وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم من عماله » .

على أن الأمر استدعى بعد ذلك الاستعانة **بعناصر غير عربية** فى تعمير الثغور فقد أسكن معاوية بن أبى سفيان وهو والى الشام من قبل عثمان طرابلس « جماعة كبيرة من اليهود » « قالوا : ونقل معاوية الى أنطاكية فى ٤٢ هـ جماعة الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصرين فكان منهم مسلم بن عبد الله ابن حبيب بن النعمان بن مسلم الانطاكى وكان مسلم قتل على باب من أبواب أنطاكية يعرف اليوم بباب مسلم ، وذلك أن الروم خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية فكان مسلم على السور فرماه علج بحجر فقتله » « وتل جبير نسبت الى رجل من فرس انطاكية كان له عنده وقعة وهو من طرسوس على أقل من ١٠ أميال » « قالوا نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الاردن ـ صور وعكا وغيرها ٤٢ هـ ونقل من اساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى أنطاكية فى هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة » ووجه يزيد بن عبد الملك الزط الى المصيصة ، كما نقل المعتصم كثيرا منهم فى عهده الى عين زربة وأسكن مروان بن محمد الخصوص فى شرقى جيحان بجانب المصيصة : فرسا وصقالبة وانباطا نصارى ، وقد نقلهم المنصور الى المصيصة وعندما توالى تعمير مدن الثغور فى العصر العباسى برز الفرس عماد الدولة وسندها الأول بين مستوطنى المدن التى

جرى بناؤها أو تجديدها : مثل اذنة ، وطرســـوس ، وعين زربة.والحدث وهكذا كان « يمثل سكان الثغر كل شعوب المشرق الاسلامى فى هذا الوقت وهم حين ينزلون الثغر يربطهم رباط واحد هو رباط الفروسية والجهاد ، ومن هنا أخذت التقاليد الثغرية أصولها ·· وقد كانت الحياة الاجتماعية فى الثغور مبنية على الحركات الحربية الرتيبة فهى التى تحدث الأمن والانتعاش وتقطع السكون التام » (٢١٥) ·

**وفى أثناء فتنة الامين والمأمون تولى عبد الملك بن صالح للامين الشام والجزيرة فأتاه أهل الشام والزواقيل والاعراب من كل فج ووقع الصدام بين هؤلاء وبين جند أهل خراسان والأبناء ( أبناء الدهاقين من الفرس )** فلما انتصر المأمون حدث أن زار الشام مرة فتعرض له رجل فقال له : أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شاريا ، اغرب فعل الله بك (٢١٦) ·

وقد وصف المقدسى **أهل حمص والمصيصة بالحمق** حتى وضع قاعدة فقال « واعلم أن كل بلد فيه صاد فأهل حمق الا البصرة فان اجتمعت صادان مثل المصيصة وصرصر نتعوذ بالله » لكنه يقول عن حلب « وفى اهلها ظرف ولهم يسار وعقول » (٢١٧) ومما اختصت به مدينة اللاذقية حسب رواية القفطى فى أخبار الحكماء ـ أن المحتسب كان يجمع **النسوة الفاسدات والغرباء المؤثرين للفساد من الروم** فى حفلة وينادى على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيها لليــلة ثم يؤخذون الى الفنادق التى يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتما يسمى خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب الوالى لها ، وان وجد خاطىء مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب · على أن هذا النظام لم يذكر الا بعد أن عادت مدينة اللاذقية الى حكم الروم (٢١٨) ·

---

(٢١٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٧ ، ١٨٦ ، ١٣٢ ، ١٥٤ ـ ٥ ، ١٢٣ ، ١٧٣ ، ١٧٥ : ٩ ، ١٩٩ ، د . شعيرة : المرابطون في الثغور العربية الرومية ـ بحيث في كتاب ( الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ) .

(٢١٦) الطبرى : جـ ١٠ ص ١٦١ ، ٢٩٦ .

(٢١٧) المقدسي احسن التقاسيم ص ٣٥ ـ ٦ ، ١٥٥ ـ ٦ .

(٢١٨) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ٢ ص ١٢٥ .

وكان **الاحتفال بالعيدين** يبلغ روعته حيث يكون الشعور الاسلامي على أقواه مثل طرسوس حيث كان يأتي غزاة المسلمين من كل انحـاء الدولة الاسلامية حتى كان يعتبر عيداها من محاسن الاسلام ولما ضـــاعت من المسلمين طرسوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها (٢١٩) .

ولكن تعرضت الشام كثيرا **للأوبئة والزلازل** ، وقد وجد عمر الوباء بالشام حين خرج اليها ١٧ هـ وطعن عمير بن سعد والى حمص وقنسرين في عهد عثمان ووقع طاعون أيام هشام بن عبد الملك وخرج الى الرصافة بالبرية . وجاءت أخبار طاعون شديد بالشـــام سـنة ١٠٧ هـ ، سنة ١١٥ هـ ، ووقعت زلازل فى سنوات مختلفة فزلزلت المصيصة سنة ١٨٧ هـ فانهدم سورها ونضب ماؤها بساعة من الليل وفى سنة ٢٤٥ هـ « كانت فى أنطاكية زلزلة ورجفة فى شوال قتلت خلقا كثيرا وسقط منها ١٥٠٠ دار وسقط من برجها نيف وتسعون برجا وسمعوا أصواتا هائلة لا يحسنون وصفها من كوى المنازل وهرب أهلها الى الصحارى وتقطع جبلها الاقرع وسقط فى البحر فهاج البحر وارتفع منه دخان أسود مظلم منتن ، وغار منها نهر على فرسخ ... وزلزلت بالس والرقة وحران ورأس عين وحمص ودمشق والرها وطرسوس والمصيصة واذنة وسواحل الشام ورجفت اللاذقية فما بقى منها منزل ولا أفلت منه الا اليسير وذهبت جبلة بأفعالها » (٢٢٠) .

**وقد كانت الثغور موردا للرقيق من أسرى الروم** ويذكر المقدسى أن الرقيق البيض صنفان الصقالبة ، والروم وهم يقعون الى الشام وأقور وقد انقطعوا بخراب الثغور « وسألت جمـــاعة منهم : كيف يخصون ، فتحصل لى أن الروم يســـلون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس لئلا يشغلوا بالنساء وتؤذيهم الشهوة » فاذا غزا المسلمون وقع بعض الخصيان فى أسرهم ، وقد ظهر من الخصيان عند الروم فى القرن الرابع الهجرى مثلان نارسيس Narses ، وأمير البحر نيكتياس Niketas الذى فتح صقلية ، وكان عند المسلمين مؤنس القائد، وثمل الخادم وهو أمير البحر صاحب الانتصارات بطرسوس (٢٢١) . وفى (رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ) لأبى الحسن المختـــار بن عبدون البغدادى

---

(٢١٩) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور أبى ريدة ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢٢٠) الطبرى : ج ٤ ص ١٩٩ ، ج ٥ ص ٦٩ ، ج ٨ ص ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٨٧ ، ج ١٠ ص ٨٩ ، ج ١١ ص ٥٧ .

(٢٢١) متز : الحضارة الاسلامية ترجمة دكتور أبى ريدة ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٥ .

المعروف بأن بطلان الطبيب النصرانى الذى عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يقول الكاتب » ـ والروميات بيض شقر سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة ، وخدمة ومناصحة ، ووفاء وأمانة يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، ولا يخلو أن يكن بالفن صنائع دقيقة ، أما الأرمنيات ، فالملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر ، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة والسرقة فيهن فاشية ، وقل ما يوجد فيهن بخل ، وفيهن غلظ طبع ولفظ وليست النظافة فى لغتهن وهن عبيد كد وخدمة ومتى تركت العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطره الى خير لا يصلحون الا على العصا والمخافة ، وكن مع ضربه وانقياده لما تريده على حذر ٠٠ ونساؤهم لا يصلحن لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما ان الزنج أشر السودان » (٢٢٢) ٠

وقد كثر رقيق الروم فى قصور الخلفاء ،وقد أعطى الرشيد مروان بن أبى حفصة مالا وعشرة من رقيق الروم حين مدحه بقصيدة ٠وكان للمأمون غلام يسمى قسطنطين الرومى وآخر يدعى موفق الصقلبى « ودخل أحمد ابن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون ـ وصيفة جليات روميات مزنرات ، قد تزين بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب وفى أيدهن الخوص والزيتون ٠٠٠ » وقد حمل الروميات عادات قومهن فى الغناء وضروب التظرف الى المجتمع العربى ٠ (٢٢٣) ، وذكر ساويرس أن أجاثو Agatho بطرك الاسكندرية اعتاد شراء أسرى الحرب البيزنطيين واطلاق سراحهم ٠ (٢٢٤) ٠

---

(٢٢٢) متز : الحضارة الاسلامية ـ ترجمة دكتور ابى ريدة جـ ١ ص ٢٢٩ : ٢٣١ ٠

(٢٢٣) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٨٧ ـ ٨ ، ٩٧ ، دكتور حتى ـ تاريخ العرب ترجمة نافع جـ ٢ ص ٤٢٨ ٠

(٢٢٤) اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة دكتور حبشي ص ١٥٠ ـ ١ ٠

## هذه هى الثغور ..

في نشوئها ، وتطورها ..

في سلمها ، وحربها ..

مجتمع يموج بالحركة ، وحياة متكاملة ، ونشاط متعدد الجوانب ، ونهضة تجد فى روح الجهاد أسباب الحياة والبقاء والنماء لا عوامل الموت والضعف والفناء .

لقد عرف المسلمون كيف يدافعون عن دولتهم بعد أن أقاموها . وامتدت أيديهم تصافح وتعامل ، وتتبادل المتاجر والمعارف وشتى المنافع .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » صدق الله العظيم .